

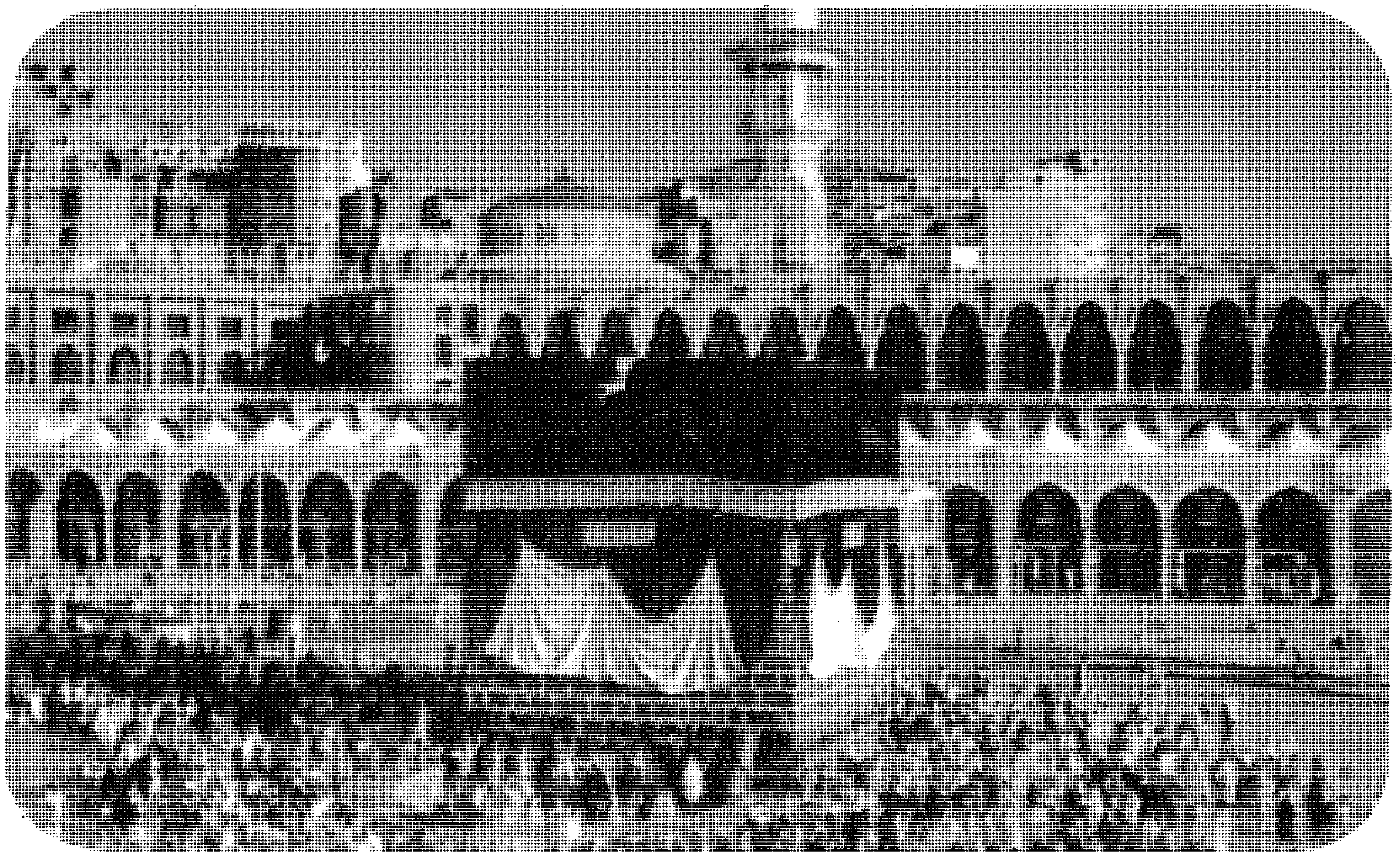
(١٠٣)

التاريخ المفصل

للكعبة المشرفة قبل الإسلام

بقلم

عبد القدوس الأنصاري



الناشر
نادي مكة الثقافي الأدبي
١٤١٨هـ/١٤١٩هـ

اهداءات ٢٠٠٢

مجلة المنهل

السعودية

التاريخ المفصل

للكعبة المشرفة قبل الإسلام

بقلم

عبد القدوس الأنصاري

الناشر

نادي مكة الثقافي الأدبي

١٤١٨هـ/١٤١٩هـ

ⓗ نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤١٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الأنصاري ، عبد القدوس

التاريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام ـ مكة المكرمة

٠٠٠ ص ٠٠٤ سم

ردمك ٣ ـ ٢٠ ـ ٦١٧ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الكعبة ـ تاريخ أ ـ العنوان

ديوى ٢١٥,١ ١٩ / ٠١٧٤

رقم الإيداع : ١٩/٠١٤٧

ردمك : ٣ ـ ٢٠ ـ ٦١٧ ـ ٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد .. فان أصل هذا الكتاب محاضرة كنت ألقيتها عن تاريخ الكعبة المشرفة قبل الاسلام في عام ١٣٩٩هـ بالندوة العالمية المعقودة اذ ذاك في جامعة الملك سعود بالرياض للدراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام وذلك ضمن محاضرات عديدة ألقاها بالجامعة علماء وأدباء كبار من المملكة العربية السعودية ومن العالم العربي والاسلامي وغيرهما من أنحاء العالم ممن استوفدتهم الجامعة للاسهام في الموضوع المشار اليه آنفا .

وقد تم عقد تلك الندوة باشراف الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري ، رئيس قسم الآثار والمتاحف في كلية الآداب بالجامعة ، رئيس الندوة العالمية الأولى والثانية للدراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام ، رئيس جمعية التاريخ والآثار بالجامعة المذكورة . الذي قام باستكشاف آثار مدينة « الفاو » العربية العريقة في الحضارة وغيرها من الأماكن الأثرية في أرجاء هذه البلاد ؟

عبد القدوس الأنصاري

الفصل الأول

اسماء الكعبة المشرفة قبل الإسلام

الكعبة

البيت

البَنِيَّة

الدَّوَّار

القادس .. وناذر

القرية القديمة .. والقبلة

الحَمساءُ

المذهب

الإلّ

بَكَّة

أسماء الكعبة المشرفة قبل الإسلام

تمكنت نتيجة بحثي في مختلف المراجع ، من جمع عشرة أسماء للكعبة قبل الاسلام . أنا مُورِدُها في هذا البحث الخاص بذلك الذى هو ضمن البحث العام ، عن الكعبة قبل الاسلام .

وقد ورد بعض هذه الأسماء في القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي الشريف ، وفي الشعر العربي الجاهلي ، وفي الشعر المخضرم . وفي المراجع اللغوية وغيرها .

١ ـ الكعبة:

من تلك الأسماء اسم « الكعبة » الذى ورد في القرآن المجيد مرتين في سورة المائدة .. في الآيتين ٩٥و٩٧ .

وورد هذا الاسم في الذكر الحكيم يحمل في طياته أنه كان اسماً معروفاً مُتَدَاوَلا في الجاهلية لهذا البيت العتيق .

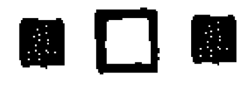
وورد اسم « الكعبة » نَصّاً في حديث نبوي صحيح ، أوله : « أُرَانِي ليلة عند الكعبة فرأيت رجلا آدَمَ كأحسن ما أنت راء من أُدم الرجال له لِمَّة'' من أحسن ما أنت رَاء من اللِّمَم ، قد رَجَّلها يقطر ماءاً . متكئاً على رَجُلين أو على عواتق رجلين ، يطوف بالبيت فَسَأَلتُ : من هذا ؟ فقيل : المسيح بن مريم(١) .. كما ورد أيضاً أنه : « لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة دخل المسجد الحرام ، والأصنامُ منصوبة حول الكعبة فجعل يطعن بِسِيَةِ

(١) صحيح البخاري ١٤٩/٤ طبع مطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م . وصحيح مسلم الجزء الأول ص٢٧٣ و ٢٧٤ ط. دار احياء الكتب العربية بمصر ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

قوسه في عيونها ووجوهها ، ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » ثم أمر بها فكُفِئَت ـ أي أُلقِيت على وجوهها ـ ثم أُخرِجَت من المسجد فَحُرِّقت(٢) .

وورد في كتاب الأزرقيّ عن عبد الله بن مسعود أن الأصنام حول الكعبة كانت ٣٦٠ صنم ، وذُكِرَ أنه كان في يده : « أى في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم » قضيب وأنه كان يشير اليها بقضيبه ، فتتساقط على ظهورها(٣) .

واسم الكعبة وارد كثيراً في الأحاديث النبوية ، وفي كلام العرب المنثور ، وفي المَراجع اللغوية والتاريخية ، والأدبية ، وفي السيرة النبوية ، وغير ذلك ، وبَدَهِيُّ أن المَعنِيَّ بهذا الاسم هو نفس « البيت الحرام » بمكة . وتقول المراجع اللغوية المعتمدة : ان اسم الكعبة مشتق من مادة التكعيب في اللغة العربية وهو : التربيع ، أو مع الارتفاع . قالوا : ومنه الكَعبُ ، سُمِّيَ بهذا الاسم لنتوئه وخروجه من جانبي القدم(٤) .



هذا وقد بَحَثتُ مليًا في جملة من دواوين الشعر الجاهليّ ، وكتب الأدب واللغة والتاريخ ، وكتب السيرة النبوية وغيرها ، لعلي أعثر على بيت أو أبيات من الشعر الجاهليّ ، فيها اسم « الكعبة » نصّاً فلم أوفق بَعدُ ، الى طَلِبتي ، ولا أزال معنيّاً بهذا البحث ولن أزال ان شاء الله حتى أحظى بالعثور على ذلك .

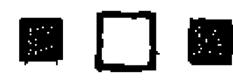
وأذكر انى وجدتُ في شرح ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه الذي راجع طبعته حسن كامل الصيرفيُّ وهو شاعر مصريُّ

(٢) الاصنام لابن الكلبي (ص٣١) .
(٣) أخبار مكة للازرقي ١/ ٧٠ .
(٤) لسان العرب ، والقاموس المحيط (مادة كعب) والأصنام لابن الكلبي . (ص٢٦) وتاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٥/ ٢١٨ ومعجم البلدان لياقوت الحموي (مادة كعب) وغيرها .

معاصر ذو اطلاع واسع على اللغة والشعر العربي ـ وجدتُ في شرح ذلك الديوان قصة تاريخية مضمونها : أن نفراً من شباب قريش في الجاهلية بينهم أبو لهب اتفقوا على سرقة الغزال الذهبيّ المحفوظ في جُبِّ الكعبة الذي هو خزانتها المحفورة في باطنها ، قُربَ بابها الشرقي ، فلما حققوا هدفهم ذلك دار بينهم حوار مسهب ورد فيه اسم « الكعبة » نصّاً مُراداً ، ولما جاء دَورُ تسجيلِ هذا الحادث الذي كان له دَوِيُّه في الأوساط القرشية ، آنذاك ـ شعراً رأينا شاعر الجماعة ومسجل الحادث : « أبا مسافع » وكان واحداً منهم ، مشاركاً لهم في تنفيذ خطتهم ، رأيناه يعدل في شعره عن ذكر اسم « الكعبة » الى ذكر اسم « البيت » . ولعل ذلك ناجم عن خفة هذا الاسم على طبيعة الشعر العربيّ الموزون المُقفى بالنسبة لاسم « الكعبة » .. قال :

ابلغ بني النَّضر اعلاها واسفلَها ... انَّ الغزالَ وبَيتِ الله والرُكْنِ

امست قِيَانُ بني سَهم تَقسّمُه ... لم يَغلُ عند نَدَاماهُنَّ بالثمن(٥)



وأخيراً عثرتُ على اسم « الكعبة » نَصّاً في قصيدة مطولة يتحدث فيها الشاعر : جُمَاعةُ البارقيُّ عن هجرات بعض أهل اليمن من الجنوب الى الشمال . فقد ورد في هذه القصيدة المسهبة التي تبدو على نسجها الصنعةَ قولُه :

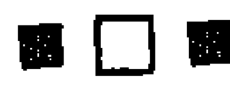
واحتوت منهُم خزاعتها الكعـ ... ـبةَ ذاتَ الرسوم والآياتِ

اَخرجَت جُرهمَ بن يشجُب منها ... عنوةً بالكتائب المُعلَمَاتِ

وقد راجعت العديد من المصادر الشعرية والأدبية واللغوية ، وغيرها ، لعلي أعثر على ترجمة للشاعر جُمَاعةَ البارقي هذا ، لأَعلَمَ هل هو جاهلي أو اسلامي .. فاذا كان جاهلياً أكون قد عثرت

(٥) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٨٧ ـ ٢٨٩ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ، تحقيق دكتور حنفي حسنين ، ومراجعة الأستاذ حسن كامل الصيرفي .

على ضالتي المنشودة في شعره هذا ، وهي وجود اسم « الكعبة » في شعر عربي جاهلي . ولكني عُدتُ بِخُفَّي حنين ، ولكوني وجدت مع البيت الذي فيه اسم « الكعبة » اسمَ ناظمه في كتاب « صفة جزيرة العرب ــ للهمداني » فقد تتبعت اسمه في مختلف المصادر والمراجع حتى وجدته أيضاً في كتاب « الاكليل » ــ للهمداني أيضاً . فانشرح صدري لهذا الكشف العلمي ، لأني أدركتُ من طبعة هذا الكتاب في جزأيه : الأول والثاني أن ناشره ومحققه محمد بن علي الأكوع الحوالي يترجم في هوامشه لكل من وردت أسماؤهم في الاكليل ، فتتبعتُ اسم (جُمَاعَةَ البارقي) أولا ، في فهارس الجزء الأول من « الاكليل » فوجدته في فهارس الجزء الثاني منه معزُوّاً فيه وجودُه ، الى الجزء الأول ، في الصفحة ٢٢٦ من كتاب «الاكليل» ، فتتبعت تلك الصفحة وما والاها من قبلها ومن بعدها ، فلم أجد شيئاً عن الشاعر ، ومن ثم رأيت أن أقوم بمسح عام ــ أي كشف شامل للكتاب في طبعته الأولى .. وبعد لأيٍ وجدتُ اسم الشاعر : (جُمَاعَةَ ــ البارقي) في الصفحة ١٢٦ من الجزء المذكور ، ولما نظرت ما ورد في التعليق عليه وجدت محقق الكتاب يقول عن الشاعر : (جُمَاعَةَ البارقي) ما نصه : لا أعرف عن أحوال جُمَاعَةَ البارقي شيئاً ، بَيدَ أَن المؤلف أورد قصيدته التى بها هذان البيتان في كتابه : (صفة جزيرة العرب)(٦) وقد ارتاح خاطري الى هذه النتيجة التى توصل اليها محمد بن علي الأكوع بعد تحريات ودراسات مكثفة منه ، تماثل النتيجة التى توصلت اليها بعد تحريات ودراسات واسعة أخرى .



وبعد فقد كنت قدمت هذا البحث عن « الكعبة » الى الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في ١٣٩٩/٣/٣هـ ثم بعد ذلك تابعت

---

(٦) (صفة جزيرة العرب) للهمداني (ص٢٧٢ و٢٧٣) تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي واشراف حمد الجاسر نشر دار اليمامة للبحث بالرياض ، وكتاب (الاكليل) للهمداني ١٢٦/٢ تحقيق الاكوع اليماني ، طبعة مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م .

قراءة المراجع اللغوية فاذا بي في ضحوة اليوم العاشر من شهر ربيع الأول ١٤٠١هـ أقف على بيتين من الشعر المجزو ، أذكر اني كنت قد حفظتهما أيام الدراسة ثم ذهبا من الذاكرة . وقد قالتهما هند بنت أبي سفيان تُرَقِّصُ ابنها عبد الله بن الحارث ، وقد أوردهما وأورد قصتهما « لسانُ العرب » لابن منظور في مادة (ببّة) وجاء فيهما اسم « الكعبة » نصًّا .. وهما :

لأُنكِحَنَّ ببَّه جاريةً خِدَبَّه
مُكرَمَةً مُحَبَّه(٧) تَجُبُّ أهلَ الكعبه

وقد كان كتاب الصحاح أوردهما وقال : ان بَبَّة اسم جارية ، وقد خَطَّأ أبو بَرِّي ، كتاب الصحاح في ذلك وقال :

ان بَبَّة اسم للطفل المُرَقَّص ـ بضم الميم وفتح القاف وتشديدها.

وورد الموضوع في القاموس وشرحه بصفة أوسع مما في لسان العرب، فمن نصوص القاموس وشرحه تاج العروس أدركنا أن ببّة صفة شخصية لابن هند المذكور وانه وُلِدَ قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعامين فقط . واذن فهذا الشعر انما قيل في الاسلام ، لا في الجاهلية أيضاً .

وأخيراً وجدتُها .. وجدتُ كلمة (الكعبة) المراد بها الكعبة المشرفة بمكة المكرمة ، في ديوان الشاعر الجاهلي المشهور « النابغة الذبياني » قال في داليته المشهورة :

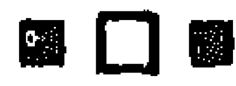
فلا لَعَمرُ الذي مسَّحتُ كعبته وما هُريقَ على الأَنصابِ من جسَدِ
والمُؤمِنِ العائذاتِ الطيرَ تمسحُها رُكبانُ مكة بين الغيلِ والسَّعَدِ

وقد نص شراح الديوان على أن المراد (بالكعبة) هنا هو (كعبة مكة المشرفة) .. وسياق بيتي الشعر المذكورين يؤيد ذلك .

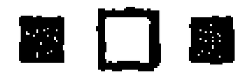
---

(٧) الشطرة الثالثة هذه ماخوذة من القاموس المحيط للفيروزآبادي .

وأقدم شكراً جمّاً لمن أفضل بتذكيري بهذين البيتين اللذين كنت وما زلت حافظاً لهما ، منذ تلقيت شرح ديوان النابغة الذبياني أجمع قراءة ودرساً على شيخنا العلامة الشيخ محمد الطيب الأنصاري عليه شآبيب الرحمة والرضوان . ولا تزال في مكتبتي النسخة التى قرأتها عليه وعليها هوامش مني يومئذ .



واسم (الكعبة) لا ريب أنه معروف ومتداول قبل الاسلام لدى عرب الجاهلية : يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وذِكر'ه' في القرآن المجيد الذى نزل بلغة العرب الفصحى ، فيه دليل قاطع على تداول العرب الجاهليين ، لهذا الاسم العربي القُحِّ الذي نطق به القرآن الحكيم أسوة باسم (البيت) في نفس المعنى المشار اليه بالذات .



هذا وكان في بلاد العرب كَعَبات'' أخرى مذكورة ، غير هذه الكعبة التى بناها ابراهيم واسماعيل ابنه عليهما السلام بيديهما ، تنفيذاً لأمر الله جل جلاله ، وقد أمر جل وعلا نبيه وخليله ابراهيم ، أن يُؤذن في الناس بالحج ، ففعل ، ونعتقد أن الكعبات الأخرى التى أقامها العرب في أنحاء بلادهم هن تقليد منهم للكعبة المقدسة في مكة ، فهن كعبات بُنِينَ على تقاليد الشرك لدى عرب الجاهلية . وبمجرد ظهور الاسلام اندثرن وأصبحن كلهن أثراً من الآثار التي يُحكى أنها كانت في المكان الفلانيّ في الزمان الفلانيّ ، وبناءِ فلان من العرب . وبعض هذه الكعبات الجاهلية ورد اسمها مجموعاً في الشعر الجاهلي هكذا . قال الشاعر الأسود بن يَعفُرَ :

اهل الخَوَرنَق والسديرِ وبارق ... والبيتِ ذي الكَعَباتِ من سنداد

٢ ـ البيت :

ومن أسماء الكعبة التى وردت في القرآن الكريم مرات متعددة ، اسم (البيت) . ورد هذا الاسم موصوفاً بالعتيق وبالحرام وبالمحرم ، ومضافاً الى ياء المتكلم الذى هو ربّنا (الله) جل جلاله . وذلك حسب ما يلي تبيانه :

أولا : في سورة البقرة بالآيات الكريمة ١٢٥ و١٢٧ و١٥٨ .

ثانيـاً : في سورة آل عمران ، في الآيتين الكريمتين : ٩٦و٩٧ .

ثالثـاً : في سورة المائدة في الآية الثانية منها .

رابعاً : في سورة الأنفال ، في الآية ٣٤ .

خامساً : في سورة ابراهيم ، في الآية ٣٧ .

سادساً : في سورة الحج في الآيات ٢٦ و٢٩ و٣٣ .

سابعاً : في سورة الطور بالآية الرابعة منها : (وقد فسر ابن كثير تلك الآية : وهي قوله تعالى : (والبيت المعمور) بأنه : (كعبة أهل السماء السابعة)(٨) .

ثامناً : في سورة قريش بالآية الثالثة منها(٩) .

وكما ورد اسم « البيت » في القرآن المجيد ، كذلك ورد في الأحاديث النبوية الشريفة ، مما هو مدون في أماكن وروده بالكتب المختلفة من كتب حديث نبوي شريف ، وسيرة نبوية، وتاريخ، ولغة، وبُلدانيّات، وكذلك ورد اسم « البيت » في الشعر الجاهلي .. بكثرة ، لعلها لخفته في نطاق وزن الشعر العربي الأصيل وسهولة اندماجه في تعبيراته الشعرية ، لأنه اسم ثلاثي" ساكن الوسط خفيف على الوزن الشعري في شتى بحوره .

(٨) تفسير ابن كثير ٤٢٨/٦ ج ط. دار الأندلس ببيروت .
(٩) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ـ وضع محمد فؤاد عبد الباقي (مادة بيت) بتصرف مني .

ولعل من أقدم من يُعزَى اليه ذلك الشعرُ من عرب الجاهلية هو : تُبَّع'' الأول (ولعله) : أسعد أبو كرب الذي قال بعض المؤرخين : انه عاش في القرن العاشر قبل الهجرة .. وانه قدم الى مكة من احدى غزواته في العراق مارّاً في طريقه منها بيثرب ، متجهاً الى بلاده : (اليمن) بجنوب كل من يثرب ومكة .. وقد رَوَوا أنه عظّم الكعبة وأكرم أهلها .. وأطعمهم وأسقاهم ، وكسا الكعبة أول من كساها .. ورد ذلك في حديث نبوي كريم . وقالوا : انه لما انتهى من زيارته لمكة وأزمع النزوج منها الى اليمن قال هذا الشعر مباهياً بما صنع لمكة وللكعبة المقدسة :

وكسونا « البيت الحرام » الذي	حرم الله مُعَصَّبًا وبُرُودا
واقمنا به من الشهر عشرا	وجعلنا لبابه اقليدا
وخرجنا منه نَؤُمُّ سُهَيلا	ورفعنا لواءنا المعقودا(١٠)

هذا وقد ذكر الحافظُ ابنُ حجر العسقلاني في « فتح الباري » عن ابن جُرَيجٍ ان أول من كسا الكعبة (أسعد أبو كرب) .

ويعزى الى شحنة بن الأحنف أو (خلف) الجرهمي أنه قال حينما نصب عمرو بن لحى ، الأصنام حول الكعبة ، يستنكر (شحنة) على عمرو بن لُحَي ذلك ، ويُنذِرُهُ بسوء عاقبة قومه من جراء هذا الذي قام به مُغَيِّراً به دين ابراهيم عليه السلام ، من عبادة الله الواحد الأحد ، الى عبادة الأصنام والاوثان في بلد الله الحرام وفي بيته المحرم ..

قال شُحنَةُ يخاطب عمرو بن لُحَي فيما رووه :

يا عمرو انك قد احدثتَ آلهة	شتى بمكة حول البيت انصابا
وكان للبيت رَبٌ واحد أبدا	فقد جعلتَ له في الناس اربابا
لَتَعرِفَنَّ بأن الله في مهل	سَيَصطفِي دونكم للبيت حجابا(١١)

(١٠) اخبار مكة للأزرقي ١/٨٠ ومعجم البلدان لياقوت الحموي ٣/٢٨٤ (مادة بيت) . وقد لاحظنا ان الازرقي لم يسم تبعا هذا وانما وصفه بانه (الاول) .

(١١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٣/٢٢١ وقد سماه في ص٢٢٠ باسم تنبَّع بن كرب . وسماه في ص٢٢١ من الجزء الثالث أيضا باسم (أسعد أبي كرب بن حسان) وسماه غيره من المؤرخين ايضا بهذا الاسم مع اختلاف في مسلسل نسبه وتاريخ حياته وزمنها بالنسبة لميلاده . والابيات المنسوبة لشحنة رواها كتاب « مروج الذهب » للمسعودي في ص٣/٢٥ منسوبة الى شحنة الجرهمي ط. دار الاندلس ببيروت .

وينسب البيت التالي ضمن أبيات من وزنه ونوعه ـ الى مُضَاض ابن عمرو الجُرهمي مباهياً بولاية جرهم على البيت فيما سبق :

فنحن عمرنا « البيت » كنا ولاته ... ندافع عنه من أتانا وندفع(١٢)

هذا وقد تحفظنا في ذكر ما نسب من الشعر الى تُبَّع ، وشحنة الجُرهمي ، ومضاض الجُرهمي ، بالنظر لما قاله ابن الكلبي : « ولم تحفظ العرب من أشعارها الا ما كان قبيل الاسلام(١٣) .

وقال قيس بن منقذ بن عبيد بن خاطر بن حُبشِيَّة بن سلول الخزاعي (اسم حُبشِيَّة من أسماء خزاعة) .. قال :

تلينا ب « بيت الله » اول حلفة ... والا فانصاب يسرن بغبغب(١٤)

وقال أبو طالب بن عبد المطلب :

وأحضرتُ عند البيت رهطي واخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل(١٥)

وقال الحصين بن الحمام المُرّي ، أحد بني سهم بن مرة (وهو شاعر جاهلي) ذكر ذلك أبو الفرج الأصبهاني في « الأغاني » :

ابونا كناني بمكة قبره ... بمعتلج البطحاء بين الأخاشب
لنا الرُبعُ من بيت الحرام وراثة ... وربع البطاح عند دار ابن حاطب(١٦)

وقال أبو قيس بن الأسلت (وهو شاعر جاهلي أيضاً) ذكر ذلك الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني في ترجمته :

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق ... غداة ابي يكسوم هادي الكتائب(١٧)

---

(١٢) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي .
(١٢) اخبار مكة للأزرقي ١/٤١ .
(١٣) الأصنام لابن الكلبي ص١٢ .
(١٤) الاصنام لابن الكلبي ص٢٩ .
(١٥) سيرة ابن هشام ص٢٩١ (ج ١) ط. مطبعه مصطفى البابي الحلبي بمصر . والأصنام لابن الكلبي ص٢٩ .
(١٦) سيرة ابن هشام ١/١٠٤ .
(١٧) سيرة ابن هشام ١/٦١ وأبو يكسوم هو : ابرهه وكان يكنى ابا يكسوم .

وذكر الأزرقي في أخبار مكة اسم (البيت العتيق) للكعبة وقال : انما سميت الكعبة بالبيت العتيق من أجل أن الله أعتقها من الجبابرة .

٣ ـ البَنِيَّةُ :

ومن أسماء الكعبة قبل الاسلام أيضاً : (البنية) على وزن غنية .. قالت سبيعة بنت الأحب أو الأجب في ذلك :

ولقد غزاها تُبَّع فكسا بَنِيَّتَهَا الحبير(١٨)

وفي رحلة العَبدَرِيّ ، يقول صاحبها : ويقال للكعبة : «البَنِيَّة» اسم لها مشتق من البناء(١٩) . وفي لسان العرب لابن منظور : «والبنية على فَعِيلَة : الكعبة لشرفها اذ هي أشرف مبنى .. وفي حديث البراء ابن معرور : (رأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر) ـ يريد : الكعبة وكانت تُدعى « بَنِيَّة ابراهيم عليه السلام » لأنه بناها(٢٠) وأورد هذا الاسم أيضاً محمد المكي بن الحسين في كتيبه(٢١) .

٤ ـ الدُّوَّار :

ومن أسماء الكعبة : (الدُّوَّار) بتشديد الوار وتخفيفها مع فتح الدال المهملة قبلها ، وضمها . و «الدوار» في كتاب الأصنام لابن الكلبي: الطواف حول الأصنام والأوثان وهذا نص كلامه :

« وكانت للعرب ـ حجارة غير منصوبة يطوفون بها ، ويَعتِرُونَ عندها أي يذبحون الغنم عندها ـ يسمونها الأنصاب ، ويسمون الطواف بها الدوار(٢٢) .

(١٨) اخبار مكة للازرقي ص١٨٩ ج١ طبعة المطبعة الماجدية بمكة .
(١٩) رحلة العبدري ص١٨٠ طبع المغرب الاقصى .
(٢٠) لسان العرب (مادة بنى) ٩٥/١٤ طبع بيروت .
(٢١) ونص كلامه : والبنية هي فعيلة : الكعبة لشرفها اذ هي اشرف مبنى .. كتيب اسماء الكعبة المشرفة ص١٠ ـ ط. المطبعة التعاونية بدمشق .
(٢٢) الاصنام لابن الكلبي ص٤٢ .

ويبدو من تحليل معنى كلمة «الدُّوَّار» بهذا المعنى الجاهليّ أنها تقابل كلمة (الطواف) في الاسلام حول الكعبة المشرفة .. ذلك الطواف الخالص لعبادة الله في أصله وهدفه الأسمى .

وفي لسان العرب لابن منظور : (أن الدُّوَّار - بالضم وتشديد الواو وتخفيفها بعد الدال المهملة المضمومة ، وقد تُفتَح) هو : صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله ويدورون به : واسم ذلك الصنم والموضع (الدوار) ومنه قول امرىء القيس (في معلقته) :

فعَنَّ لنا سِربٌ كأنَّ نِعاجه عذارَى دُوارٍ في مُلاء مُذيَّل(٢٣)

٥ - القادس .. وناذر :

ومن أسماء الكعبة أيضاً « القَادِس » .. وفي لسان العرب : القادس « البيت الحرام » (مادة قدس) وقد ورد مثل ذلك أيضاً عن « القادس » اسماً للكعبة ، في كل من كتاب « أخبار مكة » للأزرقي(٢٤) ومُعجَم مَتنِ اللغة لأحمد رضا(٢٥) وكتيب أسماء الكعبة المشرفة(٢٦).

وفي كتيب محمد المكي بن الحسين أيضاً رواية'' عن أحَد مراجعه أن البيت سُمِّي بذلك من التقديس والتطهير .. ومن أسمائها أيضاً : (نادر)(٢٧) وذلك على ما ذكره كتاب أخبار مكة ، ثم كتاب « مرآة الحرمين » ١/٣٦٣ وكتيب « أسماء الكعبة المشرفة » لمحمد المكي بن الحسين (ص١٣) .

٦ - القرية القديمة .. والقبلة :

ومن أسمائها أيضاً : القرية القديمة(٢٨) .

---

(٢٣) لسان العرب مادة (دور) .
(٢٤) أخبار مكة للأزرقي ص١٨٩ ج١ ط. مكة .
(٢٥) معجم متن اللغة لأحمد رضا (مادة قدس) .
(٢٦) أسماء الكعبه المشرفة (ص١٣) .
(٢٧) ان اسمي (ناذر) و (القرية القديمه) بعده وردا في اخبار مكه للأزرقي ١/١٨٩ طبع المطبعة الماجديه بمكه . كما ورد الاسمان في كتيب أسماء الكعبة المشرفة (ص١٣) .
(٢٨) تاريخ العرب قبل الاسلام لجزاد علي ٥/٢٢١ عن مراجعه ، وغيره من المراجع .

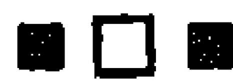
وربما كان بوسعنا أن نضيف الى تلك الأسماء القديمة للكعبة اسم (القبلة) فقد ورد هذا الاسم في شعر رَجَزِيّ لشاعرٍ جاهليّ ، يتحدث عن بعض تقاليد الجاهلية القريبة من الاسلام الا وهي اجازة الافاضة للناس من المزدلفة الى مِنى .. قال :

خَلّوا الطريق عن أبي سَيّاره وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيز سالماً حماره مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد اجار الله من اجاره

وكان اسم أبي سيارة الذي يطلب الشاعرُ أن يُخلِيَ الناسُ الطريقَ له ــ عَمِيلة بنَ خالد العدواني ، وكان يركب حماراً أسود ، أو أتاناً ، يجيز الناس عليه أو عليها من المزدلفة الى مِنى ، أربعين سنة وقد عَدّوهُ من خطباء العرب ، وكان ينظر الى أعالي جبل ثَبِير : فاذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى ، نادى : (أَشرِق ثَبِير ، كيما نغير) ثم يجيز لهم بالاضافة(٢٩) .

هذا وقد سَمّى الله الكعبة « قبلة » في قوله جل من قائل : (قد نرى تقلّب وجهكَ في السماء فلنُولّينّكَ قِبلة ترضاها) . وقال عبد المطلب مخاطباً المولى جل وعلا ، لما اقترب أبرهة من مكة يريد هدم الكعبة في أبيات مشهورة :

ان كنتَ تاركَهم وقِبلتنا فامرٌ ما ، بَدا لك !



أما اسم المسجد الحرام فهو من الألقاب القرآنية ، جُعِلَ عَلَماً على حريم الكعبة المحيط بها وهو محل الطواف ولم يكن يُعرفُ بالمسجد في زمن الجاهلية اذ لم يكن لهم صلاة ذات سجود ، والمسجد مكان السجود، فاسم المسجد الحرام عَلَمٌ بالغلبة ، على المساحة المحصورة المحيطة بالكعبة(٣٠) .

(٢٩) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٢٢١/٥ عن مراجعه ، وغيره من المراجع .
(٣٠) التحرير والتنوير : تفسير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢٥/٢ طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه بالقاهرة .

وكان جواد علي ، عَزَا لفظة (مَسجِدا) هكذا بالألف في آخرها ـ الى الأنباط الذين فسدت لغتهم العربية وكانت سلفاً في ذلك للعامية المُوَلَّدَة بعد انتشار أضواء الاسلام على المعمورة ، قال :

(وترد لفظة مسجدا في الكتابات النبطية وتعنى المسجد) .

ويتراى لى أن صيغة (مسجدا) بالألف في آخرها ، اذا كان هذا لفظها الحقيقيّ في النبطية فهي عربية الجذم ، داخلها التزام الألف في آخرها كنوع من أنواع تحريفات العربية العامية (على حد قوله المذكور آنفاً) .. وتصرفاتها العشوائية في اللغة الأم « الفصحى » التى نشاهد العديد من أمثلتها في عامية العالم العربي اليوم ، وقبل اليوم من بعد انتشار الاسلام على ربوع العالم عربيها وعجميها .

ومما يراه جواد عليّ ، أن «المسجد» و « المسجد الحرام » و «الحرم» يَعني بها الجاهليون «الحرم» الذي أحاط بالكعبة ، ولا تُعرفُ حدوده في الجاهلية على وجه واضح معلوم(٣١) .

وهذا الرأيُ يقارب الى حد بعيد قول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره : (التحرير والتنوير) وهو القول الذي مر بنا آنفاً .. ولكنه خصصه لاسم « المسجد الحرام » ولم يفرد في ذلك المعنى صيغة « المسجد » ولا صيغة « الحرم » على أن ابن كثير لم يُقِرّ هذا التفسير لصيغة « المسجد الحرام » فهو يفسر اسم « المسجد الحرام » بالكعبة ، اذ قال في السطر الأول من الصفحة ٢٣٩ من الجزء الأول ما نصه : فانزل الله : « فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام » ـ الى الكعبة الى المسجد الى الميزاب(٣٢) . وروي عن الامام الشافعي أن الفرض اصابة عين الكعبة ، وفي حديث أبي البراء : أن النبي صلى قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر

---

(٣١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٦/٤ .
(٣٢) تفسير ابن كثير ٢٢٩/١ طبع دار الأندلس ببيروت .

شهراً ، وكان رسول الله يحب أن يُحَوَّلَ نحو الكعبة فنزلت : (قد نرى تَقَلُّبَ وجهِك في السماء) فصُرِفَ الى الكعبة .

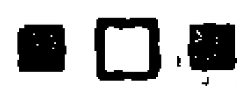
وقد قرر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، هذا الرأي بآخَرَة ، فقال : « والجمهور على أن المراد بالمسجد الحرام هنا ــ الكعبة لاستفاضة الأخبار الصحيحة بأن القبلة صُرِفَت الى الكعبة ، وأن رسول الله أُمِرَ أن يستقبل الكعبة وانه صلى الى الكعبة يوم الفتح وقال : (هذه القبلة)(٣٣) .

٧ ــ الحَمْسَاءُ :

وجاء في « القاموس المحيط » للفيروز آبادي اسم آخر ، للكعبة هو : (الحَمْسَاءُ) . قال ما نصه : والحُمسُ : الأمكنة الصلبة ، جمع أحمَسَ ، وهو لقب قريش وكنانة وجَدِيلة ومن تابعهم في الجاهلية لتحمسهم في دينهم ، أو لالتجائهم بالحَمْسَاءِ وهي الكعبة لأن حجرَها أبيض الى السواد(٣٤) .

٨ ــ المُذهَب :

ومن الأسماء التى سميت بها الكعبة فيما أورده صاحب القاموس المحيط أيضاً (مادة ذهب) : اسمُ (المُذهَب)(٣٥) .



٩ ــ الإلّ :

وأورد محمد المكي ابن الحسين أن من أسماء الكعبة عن الزبير بن بكّار ، اسم (الإلّ) ككتاب .. وفسر بذلك قول النابغة الذبياني في البيت التالى : استناداً الى «مستدرك التاج» . وعندما دَرَستُ ديوان

(٣٣) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ٢/٢٥ .
(٣٤) القاموس المحيط مادة حمس .
(٣٥) القاموس المحيط مادة (ذهب) .

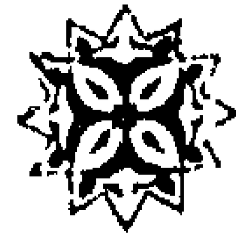
النابغة الذبياني هذا على شيخنا العلامة الشيخ محمد الطيب بن اسحاق الأنصاري رحمه الله ، فَسَّرَ لي (اِلاَلا) ــ بفتح الهمزة وكسرها ــ بأنه جبل بعرفات أو جبل عرفة وبيت النابغة الذبياني هو :

بِمُصطَحَبات من لِصَافَ وثبــــرَة يَزُرنَ اِلالا سيرُهن التـــدافع(٣٦)

وسياق بيت النابغة يدل على أن المقصود بـ (اِلاَل) هو : (جبل بعرفات) . وقد أيد هــذا المعنى « القــاموس المحيط »(٣٧) وغيره من المراجع اللغوية المعتمدة التى بين أيدينا .

١٠ ـ بَكَّةُ :

كما أورد محمد المكي بن الحسين أن من أسماء الكعبة أيضاً (بكة) . فروي عن زيد بن أسلم قوله : بكة ، الكعبة والمسجد (نقلا عن ياقوت الحموي . . في معجم البلدان ، والمشهور أن بكَّة اسم لمكة كلها . والباء والميم في اللغة العربية تتبادلان في النطــق . ومما يثبت أن بكَّة اسم لمكة لا للكعبة قــوله تعــالى : « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكَّة مبــاركاً وهدى للعــالمين) . فجعل الكعبة ــ نصًّا ــ في بكــة ، أي (مكة) .



(٣٦) ديوان النابغة للذبياني .
(٣٧) القاموس المحيط (مادة ال) .

الفصل الثانى

عمارات الكعبة قبل الإسلام

العمارة الأولى: عمارة ابراهيم واسماعيل

لا باب .. ولا قفل .. ولا سقف .. في عمارة ابراهيم للكعبة

العمارة الثانية والثالثة: عمارتا العمالقة وجرهم:

لم يصل الينا علم بتعمير شامل للكعبة
في عهد حكم خزاعة لمكة

خزاعة والأصنام:

العمارة الرابعة: عمارة قريش

شكل بناء الكعبة قبل بناء قريش

عمارات الكعبة قبل الإسلام

١ ـ العمارة الأولى : عمارة ابراهيم واسماعيل :

من الأمور التاريخية المسلم بها أن أول عمارة للبيت الحرام كانت على يد خليل الله ونبيه أبي الأنبياء ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام .. والذي رفع وقوع هذا الحادث العظيم الى مرتبة اليقينيات أن الله جل وعلا نص عليه في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .. وذلك اذ يقول : (ان أول بيت وُضِعَ للناس لَلّذي ببكة مباركاً وهُدى للعالمين) واذ يقول : (واذ يرفَعُ ابراهيمُ القواعدَ من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) .

ولما أكمل ابراهيم هذه العمارة الأولى لبيت الله المحرم أمره الله عز وجل بقوله : (وأَذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) .. فاستجابت له البشرية جمعاء ، وبدأ الحج الى مكة من يومئذ حتى يوم الناس هذا ، حيث استمر وفود ضيوف الرحمن الى بيته المحرم زهاء أربعة آلاف عام : كان ذلك منذ أَذّنَ ابراهيم في الناس بالحج .

وقد رفع ابراهيمُ البيت وجعل طوله في السماء تسع أذرُع . وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً ، من الركن الأسود الى الركن الشامي الذي عند الحِجرِ من وجهه ، وجَعَل عرض ما بين الركن الشامي الى الركن الغربي الذي فيه الحِجر اثنتين وعشرين ذراعاً ، وجَعَل طول ظهرها من الركن الغربي الى الركن اليماني واحداً وثلاثين ذراعاً ، وجَعَل عرض شقها اليماني ، من الركن الأسود الى

الركن اليماني عشرين ذراعاً . فلذلك سميت بالكعبة . لأنها على خِلقَة الكعب ، وجَعَل بابها بالأرض غير مُبوَّب(١) .

وقد مكث العربُ أهلُ الجاهلية متواترة لديهم من الأسلاف الى الأخلاف هذه الحقيقة التاريخية جيلا بعد جيل ..

وكان كثير من العالم القديم يعرف هذه الحقيقة ويعترف بها وسجلت عن ماضي تاريخه العريق ، وقد نشأت من معرفتهم لهذه الحقيقة قضية تعظيمهم للكعبة ، ولكن لا كما يقول به بعض المستشرقين الذين اعتبروا أنفسهم عبثاً : (أوصياء) على تاريخ العرب والاسلام فهم يُفَصِّلُون لهما ما يشاؤون من ثياب لا تتفق وحقيقة قوامهما ، وهم يُملُون على القراء في هذا الصدد ما تمليه عليهم عواطفهم المجردة من الاخلاص في البحث ومن البراهين المثبتة ، ليجعلوا منها بأساليبهم شبه العلمية حقائق واقعية . وما هي في الواقع الا بنات عواطفهم وأمزجتهم الخاصة .. كتبوها ونشروها لأغراض غير علمية دقيقة ولا شريفة ..

وأهل البيت أدرى بما فيه .. وأهل مكة أدرى بشعابها .. وتاريخ العرب وتاريخ الاسلام بحمد الله ليسا كغيرهما من التواريخ ، فهما واضحان مُبَيَّنان سجل عناصرهما شِعرهم ونثرهم ، وسجَّلها في أول عهد الاسلام كلامُ الله المحفوظ الصادق الأمين ، وسجلها حديث رسوله الصادق المصدوق ، وعُنِيَ بتحقيقها وتدوينها الرواة الأمناء الثقاة .. وسجلوا حقائقها ، بغير التفات الى حُب ، أو كره ، أو تقدير ، أو تخدير ، أو صداقة ، أو عداوة .

وهذا ، موضوع كبير وهام ، نرجو أن يوفقنا الله سبحانه لخوض غماره والوصول بهذا البحث المزمع اجراؤه الى أعماقه ، لابراز جواهر الحقائق المشرقة في هذا الميدان الرحب الجليل الحفيل ان شاء الله .

---

(١) اخبار مكة للازرقي ١/٢٧ طبع مكة ، بالمطبعة الماجدية .

وكان البارىء جل وعلا ، أمر نبيه وخليله أن يبنى الكعبة في مكان معين من وادي ابراهيم ، وكان ابنه ومعاونه النبي اسماعيل قد شَب فاستعان به والده ابراهيم .. وكان ابراهيم يبني الكعبة بحجر الدَّبش غير المنحوت بناء (رَضماً) أي انه كان يضع الحجارة فوق الحجارة بدون ملاط من طين أو مدر أو قَصَّة (نُورة) فلما بلغ في في بنيانه لها حدّاً ، احتاج معه الى شيء يقف عليه بسبب ارتفاع البناء تدريجياً ، اتخذ من حَجر المقام الذي لا يزال موجوداً أمام باب الكعبة تقريباً مما يلي حِجر اسماعيل ـ اتخذه موقفاً له . فالمقام لهذا السبب أثر من الآثار التاريخية المباركة الصحيحة .. وكان ابراهيم طلب من اسماعيل احضاره له لهذا الغرض ، ففعل .. والمقام ـ لغة ـ هو : الموقف ، وكان ابراهيم يُحَوِّل حَجر المقام هذا ، من جهة الى جهة ، حسب اقتضاء عملية البناء لجدران الكعبة الأربعة .

٢ ـ لا بَاب .. ولا قُفْل .. ولا سَقْف .. في عمارة ابراهيم للكعبة :

ولم يجعل ابراهيم للكعبة في بنائه لها ، باباً ، ولا قفلا ، ولا سقفاً . كان بناؤه مثال البساطة التامة .. وفي بعض هذا يقول حَبر الأمة الاسلامية : عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (والله ما بنياه ـ أي البيت الحرام ـ والضمير راجع الى ابراهيم واسماعيل ـ بِقَصَّة (نورة) ولا مَدَرَة ، ولا كان معهما من الأعوان والأموال ، ما يسقفانه ،ولكنهما أعلماه فطافا به)(٢)

ودعماً لبناء البيت وتمكيناً له من البقاء أطول زمن ممكن وضع ابراهيم ، الجلاميد الضخام التى وصفها المؤرخون والعرب بأنها «مُنكَرَة» لضخامتها المتناهية ولأشكالها غير العادية . والأساسُ القويُّ للبيت خيرُ وسيلة عُمرانية معروفة لاطالة أمد بقائه . واذا

(٢) اخبار مكة للازرقي ١/٢٥و٢٧ ط. مكة المكرمة بالمطبعة الماجدية .

كان ابراهيم عليه السلام لم يُمنَ بضخامة البيت وروعة بنائه وزخرفته .. فذلك لأمور اعتادها الأنبياء .. فيما يبنونه من المعابد ، لأنهم يريدون بها وجه الله ، وأن تؤدّى فيها شعائر عبادة الله فحسب من قِبَل المؤمنين به . ولنا دليل قائم على ذلك في بناء المسجد النبوي على الشكل البسيط المتواضع الذي أقامه عليه رسول الله محمد بن عبد الله ، حفيد ابراهيم عليهما الصلاة والسلام ، الذي بني الكعبة المقدسة قبل مولد هذا الحفيد العظيم بنحو ألفي عام ، ولا بد أن ابراهيم عليه السلام كان قد شاهد في حياته الحافلة عظمة المباني التي أقامها الناس على الأرض لأغراض عديدة ، منها ما يتعلق بعقائدهم ودياناتهم ، ومنها ما يختص بأُبَّهتِهِم فلم يؤثر عليه ذلك ، وبَنَى الكعبة هذا البناء الحَجَري الذي لا تزال عليه قواعدها وطرازها منذ ذلك التاريخ السحيق حتى الآن ، ببعض تعديلات أجريت عليها فيما بعد ، لم تخرجها عن طبيعة البناء العَامّ الأول حتى الآن .

٣ ـ العمارة الثانية والثالثة: عمارتا العمالقة وجُرهُم:

وثانية العمارات وثالثتها : عمارتا العماليق وجُرهُم ، ولوجود هاتين القبيلتين اليمانيتين ، في مكة ، في آن واحد ، اختلط الأمر في أيّتُهُما قامت بأُولى العمارتين ـ على رواة الأخبار ، فمنهم من قال بسبق عمارة العماليق لِجُرهُم ، ومن الرواة من قال بعكس ذلك ، وأيّاً ما كان الأمر فالعمارتان ثابتتان للكعبة في كل عهد من عهدي القبيلتين : العماليق وجرهم .

ولسنا ندري ان كانت هاتان العمارتان : العمليقية والجُرهمية ، قد أُدخِلت عليهما عملية ربط حجارة البناء بالملاط والقَصّة والمَدَر أم لا ؟ كما لم يصل لعلمنا ما اذا كان حَدَث بالبيت تصدُّع أو خلل ، اقتضى ترميمه كما هو معقول ، ولا متى كان وكيف كان ذلك ؟.. ويذكر الأزرقي عمارتي العمالقة وجُرهُم ذِكراً عابراً

خالياً من كل تفصيل ، فيقول عن البيت بعد بناء ابراهيم عليه السلام له : ان اسم بانيه للعمالقة هو «أبو الجدرة فسمي عَمراً الجادر» وسُمُّوا بني الجدرة . ويبدو لي من سياق كلام الأزرقي أن جُرهما تغلبوا على العمالقة ونفوهم من مكة وانه جاء سيل فدخل الكعبة . وعلى ايراد الأزرقي أن عمراً الجادر بنى البيت للعمالقة بعد بناء ابراهيم قَدَّمتُ في هذا الفصل بناء العمالقة للكعبة واتبعتُه ببناء جُرهُم لها(٣) .

ولم يصل لعلمي من الشعر العربي القديم أو الذي قبل الاسلام ذكر لبناء العماليق للكعبة سوى هذا القول المجمل غير المفصل تفصيلا دقيقاً فيما عدا نَصِّه على أن بناء العمالقة لها ، كان بعد بناء ابراهيم عليه السلام لها . فهو اذن يسبق بناء جُرهم لها ـ وجرهُم هم الذين أخذت خُزاعة بزمام حكم مكة وولاية البيت منهم عنوة ، والذين ذكر الشعر الجاهلي بناءهم للكعبة على ما سيأتي ايضاحه ..

هذا وقد نص الشعر العربي الجاهلي على بناء جُرهُم للبيت الحرام ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى المُزنيّ في معلقته الميمية :

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم(٤) —

وقد نص ثعلب شارح الديوان بقوله : « جرهم كانوا أرباب البيت قبل قريش » .

وقول ميمون بن قيس : أعشى بني قيس بن ثعلبة :

فاني وثوبي راهب اللج والتي بناها قصي والمضاض بن جرهم(٥)

هذا وان الواو في اللغة العربية حرف عطف لا تقتضى الترتيب الزمني فيما عطف بها .

(٣) اخبار مكة للأزرقي ص٤١ و٤٣ ج١ ط. المطبعة الماجدية بمكة .
(٤) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى لثعلب ص١٤ والمعلقات العشر الطوال ـ طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
(٥) ديوان الأعشى ص١٢٥ ط. المطبعة النموذجية بالقاهرة .

وعليه فتقديم قريش و « قصي » في البيتين السابقين على « جُرهُم » ليس معناه مطلقاً أن بناء قريش وقصي الذي يبدو أن المعنيّ به (بناء قصي جد النبي عليه السلام للبيت وهو أمر مختلف في حدوثه وان بناء قريش وقصي ان ثبت للكعبة ــ سابق في الزمن لبناء جُرهُم ، فان الأمر بالعكس من هذا كما هو معلوم ومعروف ، بالبداهة من التاريخ وعلى ما نص عليه ثعلب في شرحه لديوان زهير حسب ما أبديناه آنفاً ، فان عمارة قريش للكعبة حدثت في عهد ولايتهم لمكة بعد جُرهُم ، بأزمان ، وذلك في الجاهلية الأخيرة الموالية في مسلسل الزمن لظهور دين الاسلام في مكة وبلاد العرب ثم العالم ، بخلاف عمارة جُرهُم للكعبة ، فانها أقدم من عمارة قريش لها بقرون ، فجُرهُم حكموا مكة قبل حكم خُزاعة التي أخذت قريش منها ولاية اليعبة ومكة بعد قرون .

٤ ــ لم يصل الينا علم بتعمير شامل للكعبة في عهد حكم خزاعة لمكة :

ربما يبدو أن خزاعة لم تقم بعمارة البيت الحرام طيلة عهد حكمها لمكة الذي ذكروا أنه يناهز ثلاثمائة عام ، كما لم يرد في الكتب التى لدينا أن خزاعة قامت بترميم الكعبة ، طيلة تلك المدة المديدة .. التى يضاف الى طولها ، الزمن الذي بنيت فيه في حكم العماليق وجُرهُم .. ونستبعد أن لا يكون حدث بالكعبة أي خلل بنائي طيلة تلك المدة المديدة في العهد الخُزاعي أجمع ، ويترآى لنا أن السيول الدائمة الفيضان على أرجاء مكة سنوياً أو دورياً بصفة عامة وعلى وادي ابراهيم الذي تقوم فيه الكعبة بصفة خاصة لا بد أن تكون تلك السيول فعلت أثراً ما من الخلل في عمارة الكعبة .. في زمن خُزاعة الذى قدروه بأنه كان ثلاثمائة سنة والذى لم يذكر عنه أنه حدثت به عمارة أو ترميم للكعبة ، ولربما لم يصل الينا علم ذلك بسبب قد يعود الى تغطية الأحداث الدامية بين تَينِكَ القبيلتين اليمانيتين لكل ما يتعلق بأمور عمران الكعبة .

هذا اذا فرضنا أنه حدث شيء من ذلك فعلا حسب ما يترآى لنا من

مقارنة الأحداث التاريخية ببعض ، فيما مضى وفيما بعد .

٥ ـ خُزاعَـــةُ والأصنام :

وفي عهد خُزاعة برزت ظاهرة الانحراف العَقَدِيَ الكبير ، في عقيدة العرب التوحيدية . فان كبير مكة : عمرو بن لُحَيَ الأزدي هو الذي قام بتحقيق هذه الظاهرة الخطيرة الانتكاسية وتنفيذها .. رأساً .. وباهتمام بالغ وبمساع جدية كبيرة متواصلة .. وقد نجح ابن لُحي في خطته، فقد وجد من القبائل العربية عامة وفي مقدمتها قبيلة قريش استعداداً لهذا التغيير ، ولهذا التحريف لدين الله الحق .. وتبدأ قصة انحرافه المشار اليه وما نجم عنه من تحريف عقائد العرب ـ تبدأ بأنه كان قد ذهب الى ديار الشام في رحلة استشفاء فوجد أصناماً لقوم يعبدونها هنالك من دون الله فطلب منهم أن يعطوه بعضها ليدخل عقيدة الشرك بالله تعالى التي هم عليهـــا ، الى قمة بلاد العرب ، فوافق أولئك القـــوم المشركون وسلموه أصناماً منها : هُبل .. وجاء بها الى مكة ونصب بعضها بداخل الكعبة ، ونصب بعضها حولها ، وأرسل الباقي الى أنحاء بلاد العـــرب وحسن لهم عبادتهـــا من دون الله ، بزعم أنهـــا تمنحهم الغيث والصحة والأمان والسعادة في حياتهم الدنيـــا وهي مطالب نفيســـة وعزيزة على العرب المزعزعة عقيدة التوحيد بين جوانحهم حينئذ . وكان عمرو بن لُحَيَ تلقى هذه الفكرة الهوجاء من الناس الذين منوا عليه باعطائه بعض أصنامهم بزعم أنهـــا تمنح من يعبـــدها من دون الله الغيث والصحـــة وما الى ذلك .

وكان عمرو بن لُحى بن حارثة الأزدي رجلا متحركاً طموحاً الى أن يتقلد الزعامة على العرب ، ويرى ان هذا الانحراف هو طريق مؤدية الى هذا المنصب الكبير . وكان نازع الحارث بن مضاض الجُرهمي ، ولاية الكعبة ، وقاتل جُرهما ببني اسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن مكة ، ونفاهم عن بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم ، وهو أبو خزاعة(١).

(١) الاصنام لابن الكلبي ص٨/ط. المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩١٤م ـ ١٣٣٢هـ .

وهكذا حَوَّلَ عمرو بن لُحَيّ بيت الله الذي بناه خليله ابراهيم ، لنشر عبير توحيد الله في الأرض واللجوء اليه تعالى وحده ـ حَوَّلَهُ الى مستودع للأصنام المعبودة من دون الله . وقد بقي كذلك طيلة أمد الجاهلية الى أن فتح الله للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، مكة ، فكان من أول ما بدأ به أن كَسَّر الأصنام الموجودة به وحَوله ، فجعل يطعن بِسِيَة قوسه عيونها ووجوهها ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » ثم أمر بها فكُفِئَت ثم أُخرجت فحُرِّقَت .

روى ذلك راشد بن عبد الله السُلمي : في حوار شعري لطيف أجراه فيما بينه وبين سيدة ربما تكون امرأة حقيقية وربما تكون خيالية ، وأُرجِّح أنه حوار حقيقي وقع فعلا فيما بينه وبين سيدة لم يفصح عن اسمها : اذ لا لزوم لذلك مطلقاً : ونص ذلك الحوار الشعري قوله :

قالت : هَلُمَّ الى الحديث فقلت : لا ... يابى الالهُ عليك والاسلامُ

او ما رايتِ مُحمداً وقبيلَه ... بالفتح حين تكَسَّرُ الاصنامُ

لرايتِ نور الله اضحى ساطعاً ... والشرك يغشى وجهَهُ الاظلامُ

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً بداخل الكعبة صور الأنبياء ، ومنهم أبو الأنبياء (ابراهيم عليه السلام) وهو يستقسم بالأزلام ، فانكر أن يكون ذلك الصنيع قد حدث فعلا من النبي الكريم العظيم خليل الرحمن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم ، فأمر بطمس الصور الموجودة بداخل الكعبة على جدرانها بدون استثناء . ورأى قَرني الكبش الذي فدى الله به اسماعيل من الذبح ، فأمر بسترِ هِما بخِمار لئلا يشغلا المُصلي بالكعبة ، وأبقاهما في مكانهما من جدار الكعبة .

وذلك مما يدلنا على أن للآثار الصحاح ، مكانة في دين الاسلام ، وقد بَقيَ هذان القرنان في مكانهما من الكعبة حتى هدمها عبد الله بن الزبير لكي يقوم ببنائها على قواعد ابراهيم ، فلما لمسهما

هـمَـدا بمكانهما .. على غرار تلك الثيـاب المعلقـة على الحبـال التي كان كاتب هذه السطور قد شاهدها في سرب انفتح بالمُناخة بالمدينـة عن هُوّة عميقة توصل الى بيوت بيضاء قائمة تحت سطح الأرض وكانت لا تزال قائمة كما كانت في صفين متقابلين ، بينهما ممر مُعَلّقة فيه تلك الثياب المزخرفة ، على متن حبال سميكة .. فلما لمسها بعض الهـابطين الى السرب العميـق وكنت أحـدهم ، هـمَـدَت وتطـايرت وسرعان ما تحولت الى هباء منثور ، ولم يبق لها أي أثر في الوجود .

٦ ـ *العمارة الرابعة: عمـارة قريش:*

كانت عمارة قريش للكعبة ، رابعة العمارات قبل البَعثة المحمدية .. وكان سَبَبَ هذه العمارة الرابعة الحريقُ الذي شبّ بالكعبة على أثر تجميرها ـ أي تبخيرها ـ من قِبَلِ امرأة قرشية وعلى أثر هطول أمطار غزيرة ، ودخول السيل الى الكعبة .. لقد تضافر الحريق والمطر والسيل على اضعاف جدران الكعبة حينئذ ، فاضطرت قريش للنظر في الأمر والتشاور في هدم الكعبة عاجلا ، تمهيداً لبنائها من جديد بشكل أقوى وأكمل .. وسَهّل لهم ذلك وجـودُ الخشب اللازم لتسـقيفها في حطام السفينة التي انكسرت اما في ساحل الشُعيبة أو في ساحل جُدّة ، ويضاف الى ذلك أيضـاً وجود نجـار رومي أو قبطي اسمه (باقوم) وأعوان له من المسيحيين في تلك السفينة . وقد قام هذا النجار وأعوانه ببناء الكعبة تحت اشراف سَراةِ قريش ـ بالحجارة المقتلعة من جبال مكة وضواحيها فقد أُخِذت حجارة بنائها من سبعة أجبل بعضُها في مكة ، وبعضُها في ضواحيها ، وقد حققها أبو الوليد الأزرقي في كتابه «أخبار مكة» وزادنا تعريفاً بها بحسب الوقت الحاضر رشدي الصالح ملحس ، محقق كتاب أبي الوليد الأزرقي وناشره بمكة ، نشراً علمياً رائعاً .

وقد تعاونت قريش ، وترافدت في نفقة البناء ، وربّعُوا القبائل القرشية أرباعاً . ثم اقترعوا عند « هُبَلَ » صَنَمِهِم الأكبر ، بجوف الكعبة حيث وضعه عمرو بن لُحي عندما قدم به من الشام

وكان رسول الله عليه السلام يوم بَنَت قريش الكعبة غلاماً أو شاباً ولم ينزل عليه الوحي بَعدُ ، على كلتا الروايتين : رواية أبي الوليد في كتابه (أخبار مكة) تقول : ان رسول الله كان يومئذ غلاماً ، وتقول رواية سيرة ابن هشام : ان رسول الله كان يومئذ شاباً عمره خمس وثلاثون سنة . وربما كانت هذه الرواية أرجح وقد أقرها وأيدها ابراهيم الحربي ولكنه زاد عشرة أيام على تلك السنة ، بالنسبة لبناء قريش للبيت(١) كما ان الحربي روى عن عبد الرحمن ابن أبزى ، انه قال : كان بين الفيل وبين النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين وقد عقب الحربي على هذه الرواية بأنها وهم . ويبدو لي أن نقده لها في محله .. فمن المعلوم تاريخياً ان الرسول وُلد في عام الفيل ، نص على ذلك المؤرخون وغيرهم من كتاب السيرة النبوية ، كما نصوا على أن مولده صلى الله عليه وسلم كان بمكة في شِعَبِ بني هاشم ، في دار جده عبد المطلب وفي حياته .

وكان عليه السلام ينقل الحجارة على رقبته .. وعندما اجتمعت لقريش أدوات البناء وما يحتاجون اليه عمدوا الى هدم الكعبة ، ثم بنائها بعد الهدم . وقد هدموها حتى أساسها الى أن وصلوا في حَفرِهِم الى حجارة الأساس الضخام المنكرة ، وهي القواعد التى بنى عليها ابراهيمُ عليه السلام، البيتَ ، فوقفوا عندها وشرعوا في البناء وكانوا استقصروا حين بنوا البيت عن قواعد ابراهيم ، وكان طول الكعبة في السماء تسع أذرع فاستقصرت قريش طولها وكرهت أن يكون البيت بغير سقف ، ولما بلغوا السقف خيَّرهم بَاقُومُ الرومي أو القبطي في أن يجعلوا سقفها مكبساً أو مسطحاً فقالوا له : ابن بيت ربنا مسطحا ، فبنوه مسطحاً ، وجعلوا فيه ست دعائم في صفين ، وفي كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامي الذي يلي الحِجرَ الى الشق اليماني ، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الأرض الى أعلاها ثماني عشرة ذراعاً ، وكانت قبل

(١) راجع كتاب المناسك واماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة لابراهيم الحربي ص٤٩٤ تحقيق حمد الجاسر ، نشر دار اليمامة .

ذلك تسع أذرع يد ، وهكذا زادت قريش في ارتفاعها عن بناء ابراهيم تسع أذرع أخر ، وبنوها من أسفلها الى أعلاها بمدماك من حجارة ، ومدماك من خشب . وكان الخشب (١٥) مدماكاً والحجارة (١٦) مدماكاً ، وجعلوا ميزابها يسكب في الحِجر (بكسر الحاء وسكون الجيم المنقطة من تحت) حجر اسماعيل ، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي ، يُصعَد منها الى ظهرها ، وزوقوا سقفها وجدرانها (والمزوق الفعلي لها) ـ بكسر الواو وتشديدها ـ هو باقوم الرومي أو القبطي وأعوانه من أخوانه في الدين المسيحي) من بطنها ودعائمها . وجعلوا (أى باقوم وأعوانه) فيها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان منها صورة ابراهيم خليل الرحمن شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورتا عيسى بن مريم وأمه ، وصور الملائكة أجمعين . . ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بطمس تلك الصور كلها ، أمر بطمسها بماء زمزم : وُضِع في ثوب مبتل به ومُحِيَ به . وكان باقوم وأعوانه رسموا تلك الصور على رواية من روايات (جواد علي) في كتابه «تاريخ العرب قبل الاسلام » ، بالزيت على اختلاف الروايات في أن رسم تلك الصور هل هو على جدران الكعبة رأساً ومباشرة ، أو على ألواح معلقة ، فمحيت كلها(٢) .

وهكذا أعاد الرسول الى الكعبة مكانتها وقدسيتها الحقة ، وعلى ما بناها عليه أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، وما أعدها لها من عبادة الرحمن وحده .

وقد جعلت قريش للكعبة باباً واحداً مرتفعاً أربع أذرع وشبراً ، وكان يفتح ويغلق ، وكانوا قد أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال ، وقرني الكبش وجعلوا ذلك عند أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى

(٢) اخبار مكة للازرقي ١٠٤/١ وغيره . وفيما يتعلق بمحو كل الصور التي كانت في جوف الكعبة . استثنى الأزرقي صورتي عيسى وامه في بعض مروياته ونفى استثناءهما في بعضها . والحق أن كل الصور الموجودة على جدار الكعبة محيت كلها بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون استثناء كما حققه العلماء الأثبات وعلى ما يتفق مع تعاليم الشريعة المحمدية في ذلك .

ابن عثمان بن عبد الدار بن قصي ، (وأخرجوا صنمهم الأكبر «هبل» وكان على الجب الذي هو فيه والذي نصبه عليه عمرو بن لحي، في الكعبة ، عند المقام ، حتى فرغوا من بناء البيت فردوا ذلك المال في الجب وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش ، وردوا الجب الى مكانه فيما يلي الشق الشامي ، ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك ، وجعلوا له سلماً يصعد منه عليها الى بطنها ، وكسوها حين فرغوا من بنائها، حبرات يمانية .

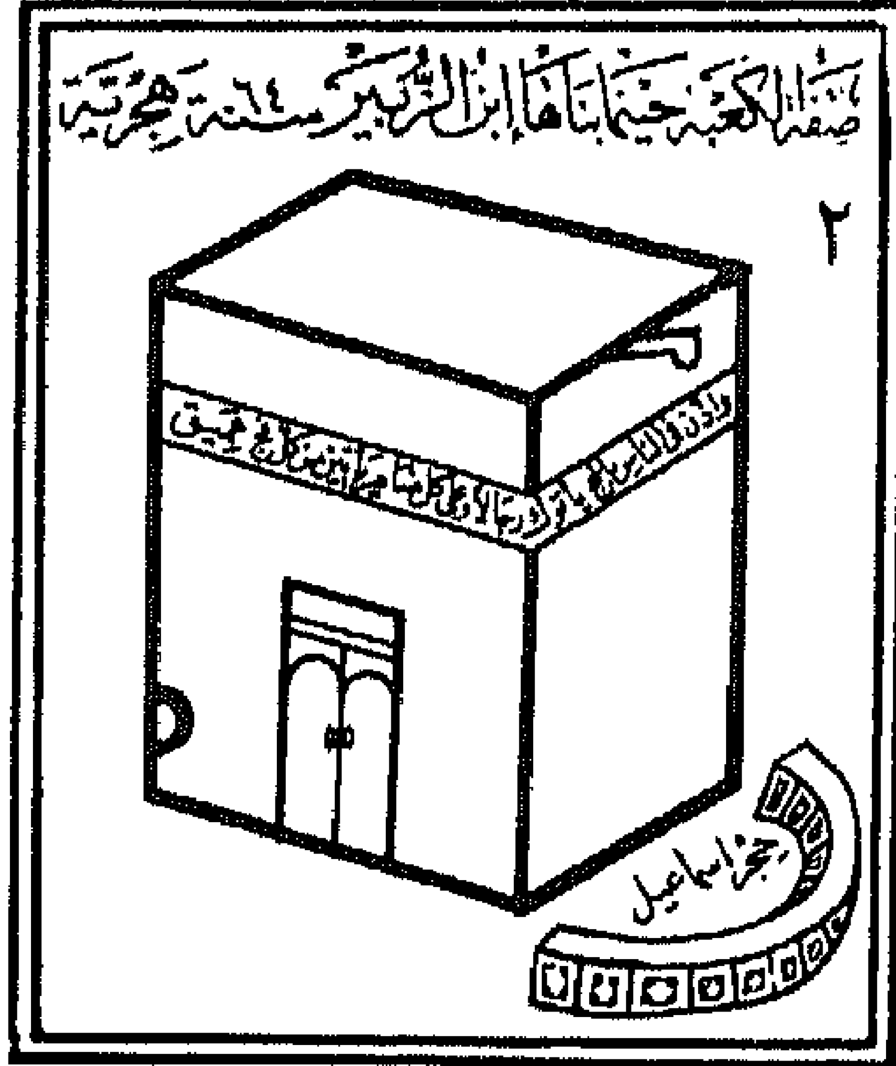
٧ ـ شكل بناء الكعبة قبل بناء قريش:

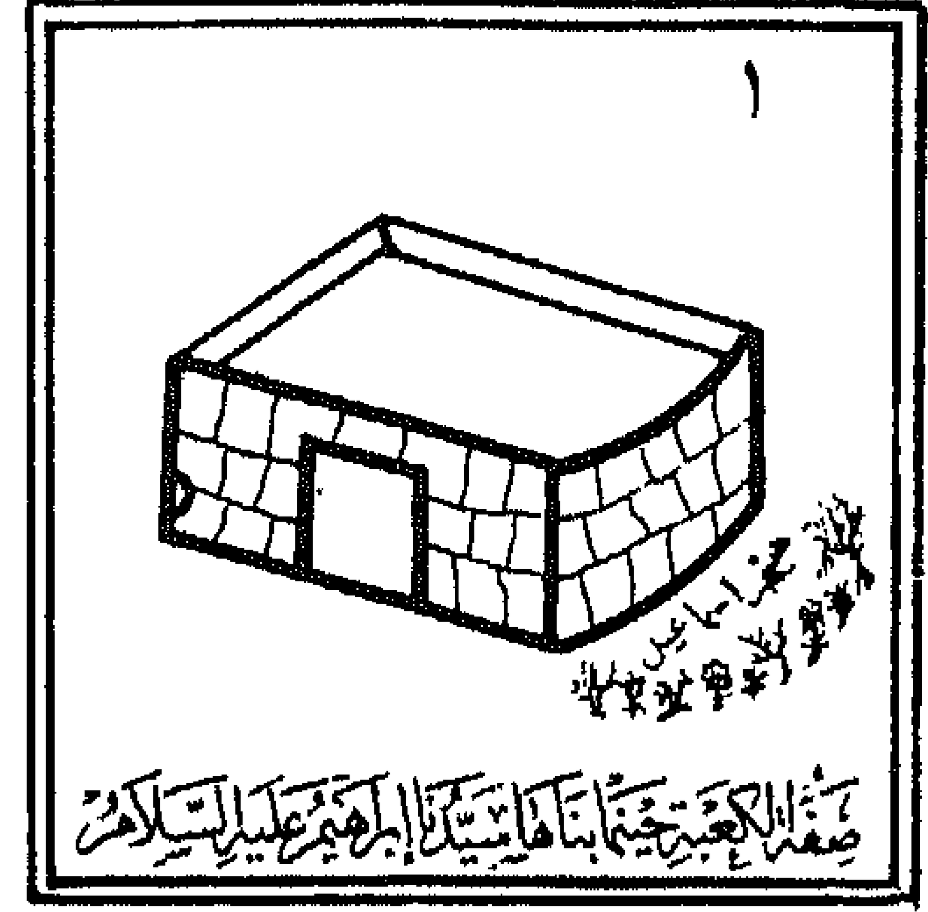
ويصف لنا الحافظ ابن حجر العسقلاني ، شكل الكعبة في الجاهلية.. ويبدو أنه يقصد بذلك ، البناء الذي كان قبل عمارة قريش لبنائها .. فان بناءها الموصوف فيما سبق من هذا الحديث يدل على تجديد قريش لبنائها فهناك وضعوا مداميك من خشب ووضعوا سقفاً للكعبة وزوقوا داخلها حتى أمكنهم تزويقها من تعليق ألواح الصور على جدرانها ، أو وضعها على الجدران رأساً .

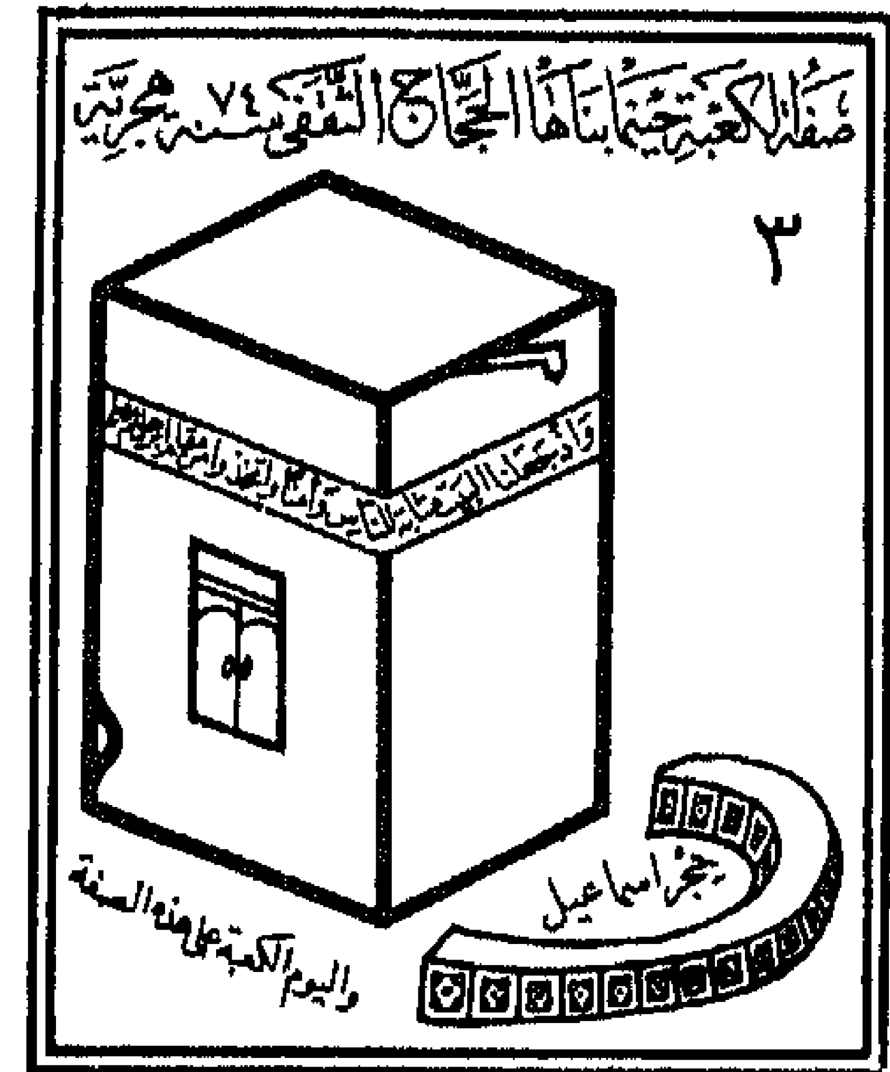
أما وصف الحافظ ابن حجر لبناء الكعبة في الجاهلية فهذا نصه .. قال : (وكانت الكعبة في الجاهلية مبنية بالرضم ليس فيها مدر ، وكانت قدر ما تقتحمها (العناق) : (العناق : الأنثى من أولاد المعز) وكانت ثيابها توضع عليها تسدل سدلا ، وكانت ذات ركنين كهيئة هذه الحلقة ⊂⊃ (٣) .

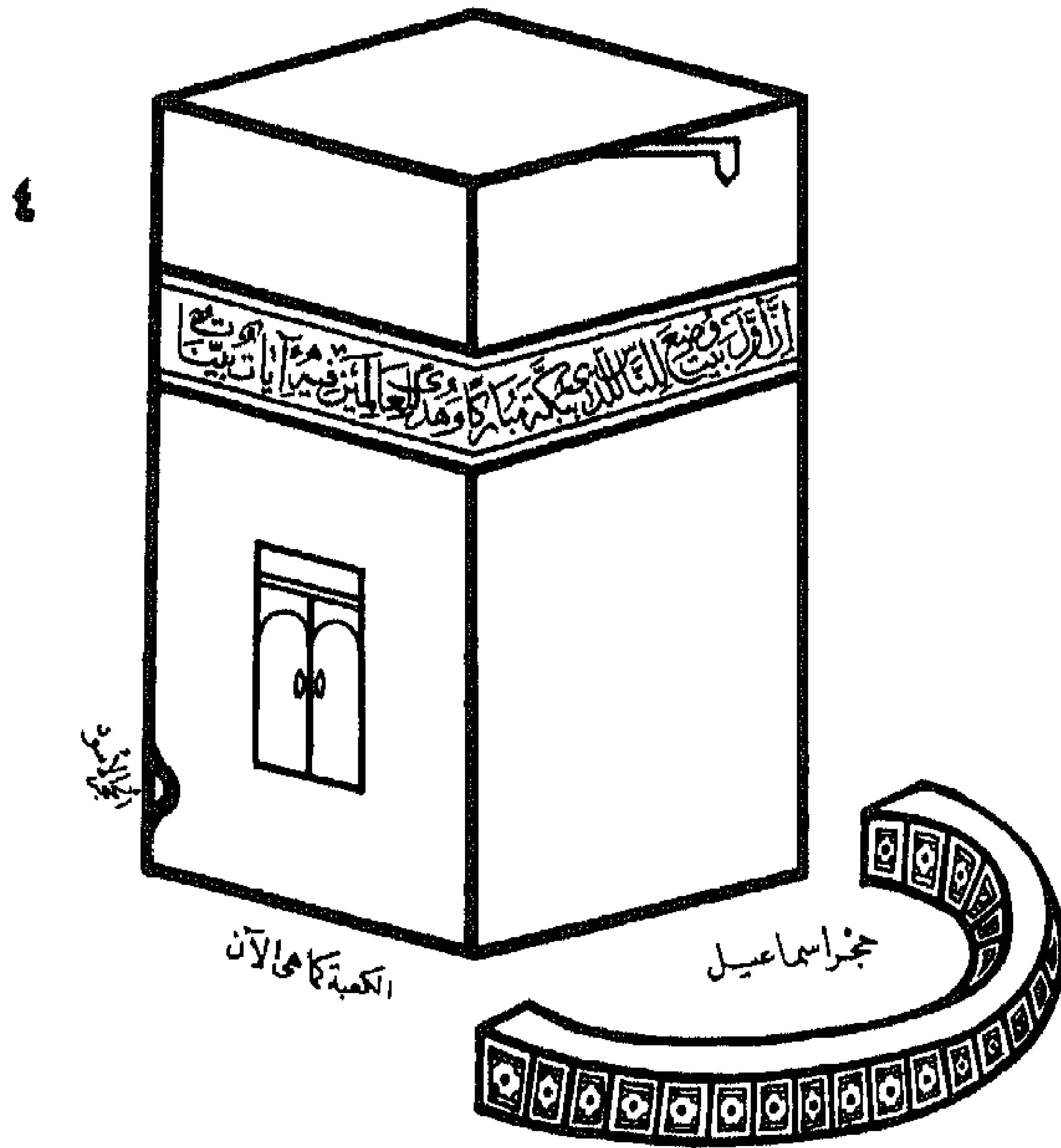
ويضيف الحافظ ابن حجر قوله : « فاقبلت سفينة من الروم حتى اذا كانوا قريباً من جدة انكسرت فخرجت قريش لتأخذ خشبها فوجدوا الرومي الذي فيها نجاراً فقدموا به وبالخشب ليبنوا به الكعبة(٤) الخ . فهذا القول الذي أورده الحافظ عن أبي الطفيل حول قدوم سفينة من

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٤٤١/٣ طبع المطبعة السلفية بمصر .
(٤) نفس المصدر السابق والصفحة والجزء .



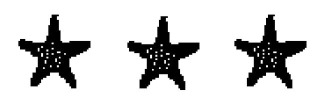






رسم هذه الصور للكعبة المشرفة محمد طاهر الكردي الخطاط بمكة المكرمة وهي من ابتكاراته إستنتجها من كتب التاريخ المعتمدة ومن أراد الوقوف على تفصيل بناء الكعبة المعظمة فليراجع كتابه (مقام إبراهيم عليه السلام) المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الروم عندما كانت الكعبة مبنية بالرضم ـ معناه أن ذلك البناء كان قبل بناء قريش ، لها ، فان الخشب الذي كان في السفينة الرومية أخذته قريش لبناء الكعبة به كما ورد نصًّا في شرح فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني .



هذا وقد أيّدَ كل من حسين عبد الله باسلامة المكيّ مؤلف كتاب « تاريخ الكعبة المعظمة » وجواد علي صاحب كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » نظرية قيمة تقول : ان « باقوما » الذي عهدت اليه قريش بعملية بناء الكعبة كان مسيحياً وكان أعوانه من المسيحيين أيضاً . ومن عادة البنائين من هؤلاء المسيحيين رسم مثل هذه الصور فيما يقومون ببنائه من المعابد ، تزييناً لها بما يتفق وعقيدتهم المسيحية كما هو مشاهد في كنائسهم القديمة والحديثة في أماكن الأرض التى بنوا فيها هذه المعابد . وفي كتاب « تاريخ الكعبة المعظمة » أن هذا الفعل يعود الى اختراع باقُوم ، فيقول ما نصه : (والظاهر أن ذلك من اختراع باقوم الرومي لأنه مسيحي) بينما يرى جواد علي ، أن باقوم هو الذي أشرف على اقامة البناء وهندسته وهو الذي سَقّفَ البيت وأقامه . وأضاف جواد علي الى ذلك قوله : (ولا أستبعد أن يكون هو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة باخوانه من بني جنسه الروم) . ثم أضاف أيضاً قوله : (ويظهر من أكثر هذه الروايات أن التصوير كان على الجدران لا على ألواح متنقلة(٥) .

وأرى أن رأيه فيما يتعلق باشتراك زملاء باقوم معه في رسم الصور المذكورة أوجه وأمثل .

(٥) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ص١٧٢ و١٧٣ ج٥ ، طبع مطبعة المجمع العلمي بالعراق سنة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م .

الفصل الثالث

الكعبة مَعْبَدٌ .. لا معبود قبل الإسلام

عمرو بن لحي وتغيير دين ابراهيم

مبادئ تروع العرب إلى عبادة الأوثان

استهتار العرب في عبادة الأصنام

برغم انتشار الشرك أبقى العرب الكعبة والحجر الأسود
على ما كانا عليه في العصر الابراهيمي

آراء المستشرقين ليست بريئة وليست للعلم الخالص

عود على نقض آراء المستشرقين في الكعبة والحجر الأسود

الكعبة مَعْبَدٌ .. لا معبود قبل الإسلام

كانت الكعبة مُعَظَّمة ـ لدى عرب الجاهلية ، تعظيم تقدير وتكريم ، لا تعظيم عبادة لها . وقد وصف الله الكعبة فقال : (ان أول بيت وضع للناس لَلَّذي ببكة مباركاً وهُدى للعالمين) . ولم يكن عرب الجاهلية وحدهم يتخذونها معبداً بل شاركهم غيرهم من الأمم القديمة في ذلك كفارس ، واليهود والهنود ، والصابئة ، على ما ورد في بعض أمهات كتب التاريخ والبلدانيات الاسلامية .

١ ـ عمرو بن لحي وتغيير دين ابراهيم :

وعندما تولى عمرو بن لُحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي الذي هو أبو خزاعة(١) ـ حِجَابةَ البيت بعد جُرهُم التى ظفر بها ونفاها من بلاد مكة ـ قام بتغيير دين اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام، فنصب الأوثان، وسَيَّبَ السائبة ، ووصل الوصيلة وبحر البحيرة، وحمى الحامي . ويقول ابن الكلبي عن قصة انحرافه وتحريفه لدين الله : (ثم انه مرض مرضاً شديداً فقيل له : ان بالبلقاء من الشام حَمَّةً(٢) ان أتيتها بَرَأْتَ ، فأتاها فاستحم بها ، فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة(٣) .

(١) الاصنام لابن الكلبي ص٨ .

(٢) الحمَّة : عين فيها ماء حارٌ ينبع ، يستشفى به المرضى : (القاموس مادة حَمَّ) . وهي بفتح الحاء المهملة . وفي لسان العرب (مادة حم) قوله عن ابن دريد : هي عيينة حارة تنبع من الارض يستشفى بها الاعلاء ـ جمع عليل اي مريض ـ والمرضى .

(٣) الاصنام لابن الكلبي ص٨ .

ويفهم من كلام صاحب الأصنام أن تغيير دين اسماعيل كان أمراً « شبه رسمي » دخل فيه العرب أفواجاً ، ومنهم أهل مكة ، بالنظر لمكانة من تولى أمر هذا التغيير في جموعهم وربوعهم وهو عمرو بن لُحي حاجبُ الكعبة اذ ذاك .

فكانت نزار تقول اذا ما أَهَلَّت : (لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، الا شريك هو لك تملكه وما ملك) . يوحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده .. يقول الله عز وجل في شركهم هذا لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) : (وما يُؤمِنُ أكثرُهم بالله الا وهم مشركون) . أي (ما يوحدوني بمعرفة حقي ، الا جعلوا معي شريكاً من خلقي) .

ويضيف ابن الكلبي قوله : (وكانت تلبية عَك : اذا خرجوا حُجّاجاً ، قَدّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم ، فكانا أمام ركبهم .. ويقولان :

نحن غُرابا عَكّ

فتقول عَكٌّ من بعدهما :

عَكٌّ اليك عانيه عِبادُكَ اليمانيه

كيما نحُجُّ الثانيه

ويستمر في حديثه عن الطرق التى كان عرب الجاهلية يؤدون بها عباداتهم : (وكانت ربيعة اذا حجت فقضت المناسك ووقفت في المواقف ، نفرت في النَّفر الأول ، ولم تُقِم الى آخر التشريق)(٤) .

وقد نقل الينا أبو المنذر هشام بن السائب الكلبيُّ التفاصيل الدقيقة التى أفضت ببني اسماعيل ومن لف لفهم من عرب الجاهلية الى انحرافهم تدريجياً من عبادة الله وحده ، الى عبادة الأصنام والأوثان ، من دون الله .

---

(٤) نفس المصدر السابق ص٧ .

وفي نفس الوقت زَوّدَنا « ابن الكلبي » بمعلومات قيمة بأن عرب الجاهلية مع انحرافهم الشديد عبر الزمن الى الوثنية فقد بقيت لهم بقايا ، من الحنيفية السمحة الحق ، وظل تعظيمهم للكعبة تعظيم احترام وتكريم مُجَرّد خال من تعظيم العبادة ، لأنهم لو عظموها بعبادتها لورد ذلك في نصوص أخبارهم وأشعارهم بدون مُواربة . وَلَمّا كان الحج والاعتمار منهم اليها .. على أنهم قد خلطوا شعائر الحج بالتلبية المذكورة آنفاً ، مما يُنبؤنا باعتناقهم لمبدأ الوثنية وهذا مع اعتقادهم بأن الأوثان والأصنام التي يعبدونها من دون الله هي ملك لله .. (جل وعلا عن الشريك بأي حال من الأحوال) .

وكانت جذور مبادىء الشرك موجودة قبل عمرو بن لُحَيّ ، لدى أبناء اسماعيل على ما تحدث به لنا ابن الكلبي وذلك قبل ذكره لقصة انحراف عمرو بن لُحَيّ ، حيث قال مُبدياً مبادىء تحول أبناء اسماعيل الى الشرك :

(حدثنا أبي وغيره – وأَثبَتُّ حديثَهُم جميعاً – أن اسماعيل بن ابراهيم (صلى الله عليهما) لما سكن مكة ووُلِد له بها أولاد كثير ، حتى ملأوا مكة ونَفَوا من كان بها من العماليق ، ضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضا ، فتفسحوا في البلاد والتماس العيش) .

وبعد هذه المقدمة التمهيدية ، أبدى لنا ابنُ الكلبيّ الباعثَ المباشرَ لاستعدادهم الجماعي لدخول ظلام الشرك في قوله التالي : (وكان الذي سلخ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم ، وصبابة بمكة ، حيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها وصَبابة بالحرم وحُبّاً له ، وهم بعدُ يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) .

(ثم سلخ ذلك بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل ، غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، و (انتجشوا) ـ استخرجوا ـ ما كان يعبد قومُ نوح (عليه السلام) منها ، على ارث بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت والطواف به ، والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة واهداء البُدْنِ ، والاهلالِ بالحج والعمرة ـ مع ادخالهم ما ليس منه) .

٢ ـ مبادئ نزوع العرب إلى عبادة الأوثان :

ويمضي بنا ابن الكلبي قُدُماً في قصة مبادىء نزوع العرب الى عبادة الأوثان ، وخلطهم عبادتها ببقايا لديهم من دين ابراهيم واسماعيل ، يتنسكون بها كتعظيم الكعبة والحج اليها والاعتمار .. فيقول رافداً لنا بالمزيد من شرح أسباب ومبادىء تحول العرب الاسماعيليين عن الدينِ الحق : دينِ أبيهم ابراهيم عليه السلام ، ويبسط القول حيال هذه الانحرافات المتفرعة عن الانحراف الأساسي الأول الذي اتجهوا اليه بادىء ذي بدء ، فيقول :

٣ ـ استهتار العرب في عبادة الأصنام :

(واستُهتِرَتِ العربُ في عبادة الأصنام . فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره ، مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب ، فاذا كانت تماثيل دعوها : الأصنام والاوثان ، وسموا طوافهم الدّوار . فكان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها ، فاتخذه ربًّا ، وجعل ثلاث أثافي لِقِدرِهِ ، واذا ارتحل تركه ، فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك .

فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ، ويتقربون اليها ، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها ، يحجونها ويعتمرون اليهـا . وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم انما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها(٥) .

ففي قوله : (وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها : يحجونها ويعتمرون اليهـا) دلالة واضحة على مدى تمسكهم ببقـايا من دينِ ابراهيم عليه السلام وعقدهم النيات على الحفـاظ والتحنث والتشبث بهذه البقايا ذوات الجذور الراسخة في أغوار جوانحهم ، وبرغم عبادتهم للأصنام والأوثان واستهتارهم بعبادتها فانهم لا يزالون يرونهـا دون مكانة الكعبة في التبجيل ، لما استقر في عقولهم الباطنية من أنها أصنام همواضعو أكثرها وناصبوه للعبادة ، لِيتَقَرّبَهُم الىاللهزلفىفيزعمهم. أما الكعبة فانها تراث أبيهم أبي الأنبياء ابراهيم وابنه اسماعيل ، لم يشركوها مع أصنامهم وأوثانهم في العبادة ، بل أبقوها على احترامهم لها وتكريمهم المتوارثين دون القفز بها الى مرتبة العبـادة .. فلها الحج اليها والاعتمار ، ليس غـير ، ولها دعاء الله عنـدها بدون انكار ، ولا تردد ولا تزيد ، وقُل مثل ذلك في الحَجـر الأسـود ، وحَجـر المقـام والملتزم ، وحِجر اسماعيل . وكلها مواضع مقدسة عندهم ، وأماكن مخصصة لعبادة الله ، وما كانوا يرفعونها الى مرتبة عبادتها واشراكها لله جل وعلا في عبـادته على غرار صنيعهم مع أوثانهم وأصـنامهم التى وضعوها ــ امعـاناً في الضلالة والانحراف ــ في جوف الـكعبة المشرفة وحولها .

وحين بعث الله نبيه محمداً بالهـدى ودين الحق أنقـذ الله به العرب وغيرهم من ضلالة الشرك الدخيـلة عليهم ، ومن عبـادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع .. وقد أمر الرسول بتكسير الأصنام المجمعة في الكعبة

(٥) الاصنام لابن الكلبي ص٣٣ هذا والنص المطبوع هو كما دونا . والذي يبدو من سياق الكلام ان الصحة : (وجعل ثلاثا ، أثافي لقدره) أي جعل ثلاث حجار ، أثافي لقدره .

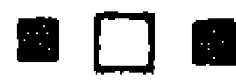
وحولها ، فلم يدع منها صنماً ، قائماً ، وقد ألقاها على وجوهها ثم حرقها .. وعوض الله تعالى العرب عن ضلالتهم التائهة العمياء ، بالهدى والنور المبين .

ومما يؤيد النظرية التي عرضها لنا ابن الكلبي في أسلوبه الفصيح الواضح فيما يتعلق بتمسك الاسماعيليين ببواق لديهم من دين اسماعيل ، ذلك الدعاء الذي دعا به عبد المطلب بن هاشم وهو آخذ بحلقة باب الكعبة حينما حزبه غزو أبرهة الأشرم لمكة ، بقصد هدم البيت الحرام ، فانه جهر وجأر في شعر له ، بالاستغاثة بالله وحده في قوله ـ وهو يدعو الله ويستنصره على أبرهة وجنده ، ومعه نفر من قريش :

لا هُمَّ ان العبد يمنـ	ـنع رحله فامنع حِلالك
لا يغلبن صليبهم	ومحالهم عدواً محالك
ان كنت تاركهم وقبلـ	ـتنا فامر ما بدا لك(٦)

وكما قال عبد المطلب أيضاً قبل ذلك بمناسبة ازماعه لحفر بئر زمزم ، وضربه عليها بالقداح :

لاَ هُمَّ أنت الملك المحمود	ربي وأنت المبدىء المعيد
من عندك الطارف والتليد	فاخرج لنا الغداة ما تريد(٧)



٤ ـ برغم انتشار الشرك أبقى العرب الكعبة والحجر الأسود على ما كانا عليه في العصر الابراهيمي :

ومن علامات بقاء الكعبة في نظرهم على مكانتها الدينية التي بناها ابراهيم عليه السلام على أرضهم أنهم في جاهليتهم كانوا يسمونها

(٦) سيرة ابن هشام ٥٢/١ و ٥٣ وفسر محققو طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، قوله : (حلالك) بمعنى (القوم الحلول) . والذي احفظه عن شيخنا العلامة الشيخ محمد الطيب بن اسحق الأنصاري رحمه الله : (فامنع رحالك) .
(٧) اخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي ج٢/٣٧ .

(بَنِيّة ابراهيم) وكانت وظيفتها لديهم عبادة الله عندها والتوجه منها اليه سبحانه اذا انتابتهم كارثة .. أو حَزَبَهُم أمر ، كما فعل عبد المطلب عندما أيقن بقرب نجاح غزوة أبرهة الشرسة التى كان يهدف بها الى هدم الكعبة وازالة أثرها ، ليتخذ من القليس كعبة للعرب بدلا عنها . هذا وكان العرب يُسَمون أبناءهم ، باضافة عبوديتهم الى أصنامهم .. فهناك عبدُ العُزّى ، وعبدُ يغوث ، وعبدُ وَدّ ، وزيد مناة ، وتيمُ اللات ، وعبدُ ياليل ، وعبدُ رُضَى ، وعبد كِلال . ولم نسمع من بين أولئك العرب من سمى مثلا ابنه بعبد الحجر الأسود ، أو عبد مقام ابراهيم .. وبمقارنة ذلك بالأسماء السابقة آنفاً ، ندرك بوضوح أن عرب الجاهلية ما كانوا يعتقدون ربوبية الكعبة ، ولا الحَجر الأسودِ . ولو كانت الكعبة في أنظارهم أحد أربابهم المعبودين لهم لقالوا : عبدُ البيت ، أو عبدُ البَنِيّة ، أو عبدُ قادس ، كما قالوا : عبد ود ، وعبدَ العُزّى وما أشبه .. فلما لم يقولوا ذلك علمنا أن مكانة الكعبة لديهم لا تتجاوز حقيقتها الابراهيمية التى ورثوها عن أسلافهم الأقدمين . وقُل مثل ذلك في مكانة الحَجر الأسود لديهم فهو في نفس مكانة الكعبة تماماً .. وهذا ينقض فعلا ما ذهب اليه (ولهوزن) فيما رواه جواد علي : حيث نقل عنه (بتأييده) قوله التالى عن الحجر الأسود والكعبة .

٥ ــ آراء المستشرقين ليست بريئة وليست للعلم الخالص :

يقول المستشرق «ولهوزن» :

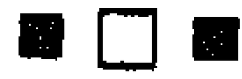
(وهذا التقديس الزائد ــ أي للحجر الأسود ــ يَحمِلُنا على التفكير في أسبابه ، وفي الميزة التى ميزت هذا الحجر على الأصنام ، وهي في طبيعتها حجارة مثله .. لقد ذهب « ولهوزن » اذن الى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية لم تكن بسبب الأصنام التى فيه ، بل كانت بسبب هذا الحَجرِ ، لقد كان هذا الحَجر في نظره مقدساً في ذاته ، وهو

الذي جلب القدسية للبيت ، فصار البيت نفسه مقدساً في حد ذاته ، بِحَجَرِهِ الذي هو منه ، ولعله شهاب «نيزك» أو جزء من معبود مقدس قديم) .

وقد أضاف جواد علي ، الى ما ذُكِرَ قَوله :

(وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن البيت لم يكن الا بمثابة اطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش ، لأنه يمثل بقايا حجر قديم ، كان مقدساً عند قدماء الجاهليين ، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد(١) .

فهذا « تقرير » صريح من ولهوزن بأن الكعبة والحجر الأسود كانا معبودين لأهل الجاهلية . كما ان نقل جواد علي لأقوال المستشرقين ، المجرد عن نقدها أو الملاحظة عليها يوصلنا الى حقيقة ماثلة للعيان ، وهي أن جواد علي كان في هذا الرأي « بوقاً » مجرداً لآرائهم في هذا الأمر ، حاكياً فقط لها ، مُسَلماً بها ، تسليما تاما عاما .



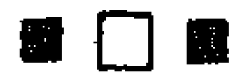
وبعد فان الحجر مقدس ، والكعبة مقدسة أيضاً عند جاهليي العرب ولكنه كما قلنا آنفاً ـ تقديس لم يكن مطلقاً ومن لون العبادة ولا من طرازها وشكلها .. بدليل ما أوردناه قبل هذا من القرائن والدلائل على ذلك . انه تقديس للمعبد الأول المنصوب للهدى على وجه الأرض ، وقد بقي رسيس من هذه العقيدة كامناً في بيئات العرب قاطبة كُمون النار والنور في الزناد والفتيل ، حتى جاء الاسلام . وكان مما دخل عليهم من التخريف الكبير في هذا الجانب ، جَعلُ الأصنام المعبودة لهم من دون الله ، في جوف الكعبة وحولها (امعاناً منهم في عبادتها ، وتلبيتهم عند حجهم الى البيت . تلك التلبية المشوبة بالشرك الأكبر في عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد . ولستُ أدري من أو ما هُوَ الذي جعل أفكار المستشرقين (أوصياء) على تاريخ

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ج٥/٢١٩ .

عرب الجاهلية حتى يخلقوا في عباداتهم وتقاليدهم ما لم يسمعوا به ، وما لم يسمحوا به . وما لم يذكروه في أسانيدهم من جيل عن جيل قبله ، وهكذا .. ان قدسية الكعبة لديهم ناشئة لا محالة عن بناء ابراهيم أبي الأنبياء لها ، وقدسية الحَجر الأسود نابعة منوضع ابراهيم عليه السلام له بيده في هذا الموضع من جدار الكعبة الخارجي الذي مكث فيه عبر التاريخ حتى اليوم . ثم من أين للمستشرقين هؤلاء أن الحَجر الأسود نيزك ؟ ثم من أين لهم أنه بقايا حَجر معبود مُقدس قبله ؟ وما هي مستنداتهم في ذلك ؟ ان هذه كلها تخمينات مصطنعة ومُصَنَّعَة'' ، وتقديرات مفرضة سجلوها باسم العلم ، وما هي من العلم في شيء .. انها أوهام وأضاليل وأباطيل .. وقضية « منطقية » أنه لو كان الحَجر الأسود حَجراً نيزكياً فلا يمكن أن يكون في نفس الوقت بقية حجر معبود مقدس لِقُدَماءِ العرب الجاهليين . هذا خلل في التفكير وسفسطة مكشوفة .. ونلاحظ أن (ولز) قال أيضاً بهذا التقديس نفسه ، للحَجر الأسود .. وزاد قوله عنه : (وكان هذا الحَجر النيزكيُ يُعَدُ رباً) .. وهذا قول يجمع في نطاق تعبيره بين قول من قال من المستشرقين : انه (نيزك) ومن قال : كان بقية حَجر قديم معبود مُقدس . ويسمى هذا المنطق «سفسطة» لدى المناطقة .

ثم يقول :

(وكانت الكعبةُ بَيتُ مكة المقدس ، سحيقةَ القِدَم آنذاك ، وهي معبد مربع صغير من الأحجار السوداء ، وكان حجر زاويتها حجراً نيزكياً ، وكان هذا الحَجر النيزكي يُعد رباً ، وكان كل الآلهة القَبَلِيَّة في بلاد العرب ، في حمايته(٢)) . وهذا تجديف ما بعده تجديف ، ورجم بالأوهام المبتسرة الباطلة .



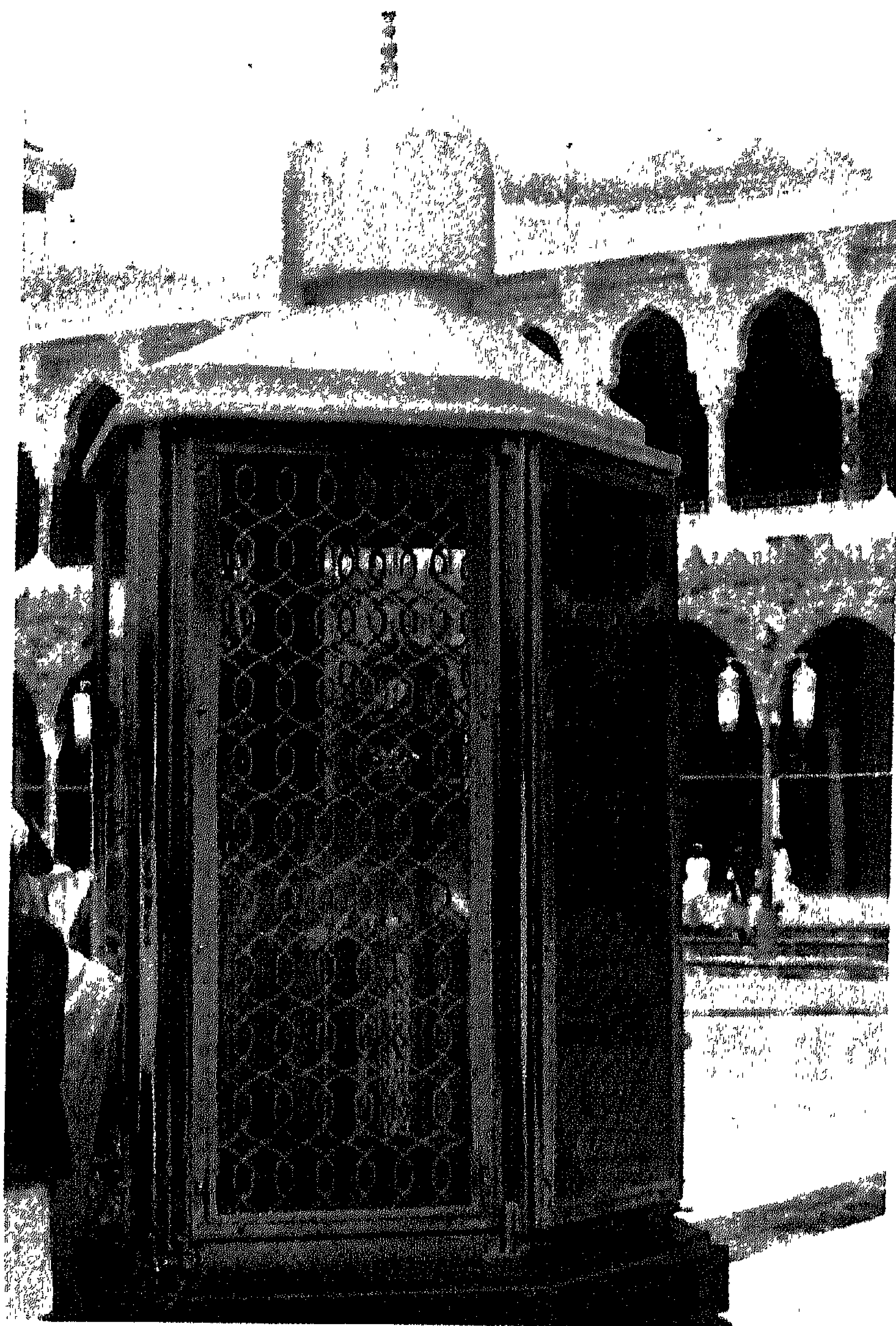
(٢) معالم تاريخ الانسانية تاليف هـ. ولز تعريب عبد العزيز توفيق جاويد ج٢/٦٢٥ .

وبعد فان علماء العرب والاسلام الأثبات مدعوون الى أن يدحضوا هذه الآراء الاستشراقية الزائفة المسمومة .. وان يولوا ذلك عناية بالغة حتى يكشفوا لنا الغطاء عما ينطوي عليه هذا الزيف من فخاخ وتُرهات وهَذيان .. وأهداف غير معلنة ، وغير علمية تفتقت بها مخيلاتهم وخيالاتهم الغربية ، خلافاً لحقائق الأمور التي المستشرقون بمنأى بعيد جداً عنها وعن بيئاتهم وحيواتهم ومنابع تفكيرهم الضحلة.. لقد آن لعلمائنا أن يتجهوا هذا الاتجاه الحميد ليرفعوا عنا أثقال وأغلال هذه البحوث الغثة التي ربما يكون احداث البلبلة ضمن أهدافها ، أو في طليعة أسباب نشرها وابرازها هكذا ..

وبينما نرى «ولز» يقول : (وكانت الكعبة بيت مكة المُقدَس سحيقة القدم آنذاك وهي مصدر حَجر صغير من الأحجار السوداء ، وكان حجَر زاويتها حجراً نيزكياً وكان هذا الحَجر النيزكي يُعدّ ربّاً) .. اذا هو يتحدث عن حجرها الأسود حديثاً عجباً فانه بدون مقدمات يشيد بأن كل الآلهة القبلية في بلاد العرب في حمايته(٣) . وربما كان هذا الرأي الاستشراقي يراد من ورائه تسديد طعنة نجلاء الى صميم دين الاسلام الذى يُقدس هذا الحَجر ، ولكنه لا يجعله معبوداً ، ويقرر أنه حَجر لا ينفع ولا يضر.. وربما أدى هذا القول من «ولز» الى خلق اضطراب عقدي في أذهان قرائه عن مفاهيم الاسلام ، لأنه يجهر بذلك الرأي في الحَجر الأسود أيضاً على حد زعم ولهوزن ومن يشايعه من المستشرقين والمستغربين المحرفين للكلم عن مواضعه . وخرافة'' لا تحتاج الى دليل زعم ولز أن كل الآلهة القَبَليّة في بلاد العرب في حماية الحَجر الأسود كبير «غائلة» آلهة العرب في الجاهلية ...وذلك في نظر هؤلاء المستشرقين الذين يجيدون حبك تزييف الحقائق على المنهج السياسي المريب الملتوي عن حقائق الأمور العقدية ووقائعها الصحيحة .

---

(٣) يقول عباس محمود العقاد : « والمعهود في جماعة المستشرقين ان الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية لانهم يخدمون سياسة المستعمرين او سياسة المبشرين المحترفين او ينظرون في بحوثهم نظرة الغربي الذي ينظر الى الشرقي نظرة المتعالي عليه في حاضره وماضيه » . راجع كتابه : (مطالع النور) أو (طوالع البعثة المحمدية) ص٨٣ و٨٤ ط. مطبعة المدني بالقاهرة .



مقام ابراهيم عليه السلام

٦ ـ عود على نقض آراء المستشرقين في الكعبة والحجر الأسود :

وبعد فان الأمر المؤكد أنه لو كان الحَجر الأسود ربّاً يُعبَد من دون الله لما أبقاه الاسلام ، واذن لكان مصيره المحتم مصير بقية الأصنام .. ولكن الله سلم ، وأنجى هذا الحَجر الذى وضعه ابراهيم عليه السلام بيده في مكانه ليكون علامة بداية الطواف للطائفين عبر الأجيال فلم يَمُرُّ به أي دور من أدوار العبادة من قِبَلِ الاسلام ، حماية له هو والمقام من هذه التهمة الباطلة ، وقد تفطن لذلك مثقف مكي معاصر هو محمد طاهر الكردي المكي الخطاط رحمه الله فقال : (ومما هو جدير بالذكر والالتفات أن العرب في جاهليتها مع عبادتهم الأحجار وبالأخص حجارة مكة والحرم ، لم يسمع عنهم أن أحداً عَبَدَ الحجر الأسود أو حجر المقام ، مع عظيم احترامهم لهما ، ومحافظتهم عليهما) .

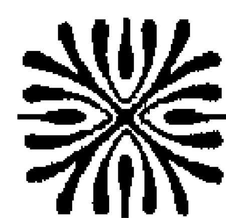
وبعد أن قرر لنا محمد طاهر الكردي المكي الخطاط هذه الحقيقة الدامغة أضاف اليها فيما يلي من كلامه قوله : (كما حفظ بيته الحرام من عبادتهم أيضاً) وقال : (ولقد تأملنا في سر ذلك وسببه ، فظهر لنا أن ذلك من عصمة الله تعالى . فانهما لو عُبدا من دون الله في الجاهلية ، ثم جاء الاسلام بتعظيمهما باستلام الركن الأسود ، والصلاة خلف المقام ، لقال المنافقون وأعداء الدين : ان الاسلام أقر احترام بعض الأصنام وانه لم يخلص من شائبة الشرك ، ولتمسك بعبادتهما من كان يعبد أحدهما من قبل) .

(فلهذا حفظ الله تعالى ـ هذين الحجرين الكريمين من أيام ابراهيم عليه السلام الى يوم القيامة من عبادة أهل الجاهلية لهما ، كما حفظ بيته الحرام من عبادتهم أيضاً . ولا يخفى أن هذه نقطة دقيقة لا يتنبه لها كل أحد(٤) .

---

(٤) كتاب : مقام ابراهيم عليه السلام ، تاليف محمد طاهر الكردي المكي الخطاط ص١٠٧ طبع مصر سنة ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م ط. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . (وأرى انه يكون أدق في التعبير لو قال محمد طاهر : (ولتمسك بعبادتهما من رُبّما كان يعبد أحدهما) بدلا من قوله : (ولتمسك بعبادتهما من كان يعبد أحدهما) .

ونقول : انه مما قـد يدل على أنّ العـرب ما كانوا في جاهليتهم يعتقدون بربوبية الحَجر الأسـود والـكعبة معاً ـ أنّ من أَيْمَـانِهم (لا ورَبِّ البيتِ والحَجر)(٥) .



(٥) اسماء الكعبة المشرفة ـ للشيخ محمد المكي بن الحسين ص٢٧ طبع المطبعة التعاونية ـ الطبعة الثانية .

الفصل الرابع

البحوث العلمية كشفت لنا ان الكعبة هي مركز الأرض

اضافة اسلامية قديمة

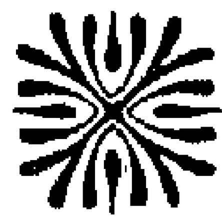
١ ـ البحوث العلمية كشفت لنا ان الكعبة هي مركز الأرض

هذا وجدير بالذكر ـ بالمناسبة أن نذكر هنا تلك البحوث العلمية الفلكية التى كشفت لنا مؤخراً أن الـكعبة هي مركز الأرض ، وقد بُنيت في قَلب مكة المكرمة .. وهي بحوث تناولها علماء محترمون بالدراسة ، وأثبتوا نظريتهم هذه فيها بالأدلة العلمية ، واذا أضفنا الى ذلك ما هو مقرر في التاريخ من قَبلِ الاسلام وفي الاسلام من أن الحَجر الأسود هو علامة بدء طواف الطائفين حول الكعبة ، وأن هؤلاء الطائفين انما يبدؤون طوافهم من الحَجر الأسود جاعليه عن أيسارهم ، ويسيرون هكذا في سائر طوافهم الى آخر أشواطه ، جاعلي الكعبة أيضاً عن أيسارهم الى أن يختموا طوافهم بلثم الحَجر الأسود أيضاً في اطار مسيراتهم المستديرة المستمرة الدوران سبعة أشواط وهما على أيسارهم، فاذا قارنا بين نظرية مركزية الكعبة للأرض ، وعملية الطواف الذى يمشى فيه الطائفون صوب اليسار بالنسبة للحَجر الأسود والكعبة معاً ، وأضفنا الى ذلك كله نظرية دورة الكرة الأرضية العامة الدائمة من هذه الناحية اليسارية ، فنكون حينئذ قد أدركنا جزءاً مبدئياً يسيراً من سر تقرير الطواف صوب اليسار خلافاً للتيامن الذي تنبني عليه آداب الاسلام في الأعمال والأحوال ومختلف الشؤون الاسلامية الهامة . وندرك أيضاً بعض أسرار كون الكعبة مركز الأرض .

٢ ـ اضافة اسلامية قديمة

ونحن هنا نضيف الى ما ورد آنفاً من كشف البحوث العلمية الفلكية أخيراً ان الكعبة مركز الأرض ـ نضيف الى ذلك أن علماء العالم الاسلامي

القدامى قد أشاروا الى هذا الموضوع اشارة صريحة واضحة فقد جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي قوله : (وقد جاء في الأخبار أن أول ما خلق الله ، في الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها فهي سُرّة الأرض ووسطُ الدنيا . وأم القرى أولها الكعبة . وبكّة حول مكة ، وحول مكة الحرم ، وحول الحرم الدنيا «مادة الكعبة»)(١) .



(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ص٢٠٩ ج٤ (مادة الكعبة) .

الفصل الخامس

أوائل من كسوا الكعبة

أخطاء تاريخية في دائرة معارف وجدي ومرآة الحرمين لإبراهيم رفعت

١ ـ أوائل من كسوا الكعبة

أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني روايات متعددة في أول من كسا الكعبة قبل الاسلام : ومن هذه الروايات ما يقول : ان أول من كساها اسماعيل ، وثانية الروايات تقول : أول من كساها عدنان ، وثالثتهن تقول : انه تُبَّع «أسعد أبو كرب» ثم قال : (ويجمع بين الأقوال الثلاثة ـ ان كانت ثابتة ـ بأن اسماعيل أول من كساها مطلقاً ، وأما عدنان فلعله أول من كساها بعد اسماعيل(١) . وقد كسيت الكعبة قبل الاسلام بِكُساً مختلفة النسج واللون . وكان أول من كساها بالديباج خالد أو نتيلة بنت جناب أو حباب أو حبان قبل الاسلام ـ ويقول الحافظ ابن حَجر : ان كسوة خالد بن جعفر بن كلاّب أو نتيلة لم تشملها كلها ، وان كان فيما كسواها شيء من الديباج) .

وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني أيضاً أنَّ «الدَّارَقُطنِيَ» روى في «المؤتلف» أن أول من كسا الكعبةَ الديباجَ نتيلةُ بنت جناب والدة العباس بن عبد المطلب ، كانت أضلَّت العبَّاس صغيراً فنذرت، ان وجدته ، أن تكسو الكعبة الديباج(٢) وورد أن اسمها : نتيلة بنت جبان أو حباب . وقد عقد أبو الوليد الأزرقي باباً عنوانه : (ذكر من كسا الكعبة في الجاهلية) جاء فيه بسنده عن عم أبي محمد ، الى (أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم) « أنه نهى عن سب أسعد الحِميري وهو تُبَّع وكان قال : (بلغني أنه هو أول من كسا الكعبة).

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني ٤٥٩/٣ طبع المطبعة السلفية بمصر .

(٢) نفس المصدر والطبعة ص٤٥٩ ج٣ .

وفي رواية عن محمد بن اسحق عن غير واحد من أهل العلم أن أول من كسا الكعبة كسوة كاملة «تُبَّع» وهو «أسعد»، أُرِيَ في النوم أنه يكسوها فكساها الأنطاع، ثم أُرِيَ أن يكسوها الوصائل (ثيابَ حبرة من عصب اليمن) وجعل لها باباً يُغلق، وقال أسعد في ذلك :

وكسونا البيت الذي حرّم الله | مُلاءاً مُعَصَّباً وبرودا
واقمنا به من الشهر عشراً | وجعلنا لبابه اقليدا
وخرجنا منه نؤم سهيلا | قد رفعنا لواءنا معقودا

وروي أبو الوليد بسنده عن النوار بنت مالك بن صرمة أم زيد بن ثابت قالت : (ورأيت على الكعبة قبل أن ألِدَ زيد بن ثابت وأنا به نَسُءٌ ـ أي حامل ـ مطارف خَزّ خضراء وصفراء وكِراراً : الخيش الرقيق ـ واحدُها : كُرـ وأكسية من أكسية الأعراب وشقاق شَعر ..

وروى أبو الوليد أيضاً عن عمرو بن الحكم السُلَمِي قال : (نذرت أُمي بَدنة تنحرها عند البيت الحرام وجللتها شقتين من شعر ووبر، فنحرتِ البدنةَ، وستَرَتِ الكعبة بالشقتين، والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة، لم يهاجر، فأنظرُ الى البيت يومئذ، وعليه كُساً شتى من وصائل وأنطاع، وكرار وخز، ونمارق عراقية ـ أي ميسانية ـ كل هذا قد رأيته عليه) .

وروى أبو الوليد الأزرقيّ أيضاً أن ما بقي من هدايا كسوة الكعبة (يُجعل في خزانة الكعبة، فاذا بَلِيَ منها شيء أُخلِفَ عليها مكانه ثوب'' آخر . ولا يُنزع مما عليها شيء من ذلك، وكان يُهدَى اليها خَلُوق'' ومجمر، وكانت تُطَيَّب بذلك في بطنها ومن خارجها)(٣) .

ويفيدنا أبو الوليد الأزرقيُّ أيضاً بسنده الى ابن أبي مُلَيكَةَ يقول : كانت قريش في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة فيضربون ذلك

(٣) اخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي ج١ ص١٦٥ـ١٦٧ ط. المطبعة الماجدية بمكة تحقيق رشدي الصالح ملحس .

على القبائل بقدر احتمالها من عهد قُصَيّ بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان يختلف الى اليمن يَتَّجِرُ بها ، فَأَثرى في المال .. فقال لقريش : أنا أكسو وحدي الكعبة سنة . وجميع قريش سنة ، فكان يفعل ذلك حتى مات .. يأتي بالحَبِرَةِ الجيدة من الجنَدِ ــ بفتح الجيم والنون ــ من أرض السكاسك باليمن . (وفي مدينة الجَنَدِ مسجد" قديم يُعد من المساجد الشريفة ، اختطه معاذ بن جبل الصحابي ، والجَنَدُ اليوم مدينة صغيرة بين تَعِزّ واب بنصف يوم) فيكسوها أي أبو ربيعة بن المغيرة المذكور آنفاً .. فسمته قريش (العدل) لأنه عَدَلَ فِعلَهُ بفعل قريش كلها ، فسموه الى اليوم (العدل) ويقال لولده بنو العدل(٤) .

٢ ــ أخطاء تاريخية في دائرة معارف وجدي ومرآة الحرمين لإبراهيم رفعت :

هذا ومما هو جدير بالتنبيه للمناسبة القائمة ، ما وقعت فيه (دائرة معارف القرن العشرين) لمحمد فريد وجدي من سهو واضح، فقد ورد فيها ما نصه : وأول من كساها ــ أي (الكعبة في الجاهلية) تُبَّع «أبو بكر أسعد» ملك حِمْيَر سنة ٢٠ قبل الهجرة(٥) .. ومحل السهو ، في قوله عن لقب أسعد أنه «أبو بكر» . وصحة لقبه المتفق عليه تقريباً لدى المؤرخين هو : « أبو كرب » . وقوله أيضاً : انه (أول من كسا الكعبة سنة ٢٠ قبل الهجرة) وذلك أن أسعد أبا كرب عاش قبل هذا التاريخ الذي هو سنة ٢٠ قبل الهجرة ــ بنحو عشرة قرون على قول بعض أعلام المؤرخين المسلمين .

---

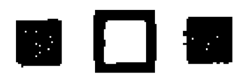
(٤) اخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي ص١٦٧ ج١ ط. المطبعة الماجدية بمكة .

(٥) دائرة معارف القرن الرابع عشر ، العشرينج٨ ص١٤٨ ط. مطبعةدائرةمعارفالقرن الرابع عشر، العشرين سنة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٧م .

ونحن نربأ بالعلامة محمد فريد وجدي ، أن يقع عامداً في مثل هذا الخطأ الواضح ، ولا بد اذن أن يكون منشأ الخطأ اما من الطابع أو من الناسخ أو منهما معاً .. على ما يبدو والله أعلم .



وقد وقع كتاب (مرآة الحرمين) لابراهيم رفعت باشا في خطأ آخر حيث ورد فيه ما نصه عن تُبَّع المذكور آنفاً انه (أول من كسا الكعبة وذلك قبل الهجرة بقرنين)(٦) ونعتقد أن هذا الخطأ أيضاً ناشيء من الطابع أو الناسخ أو منهما معاً .



(٦) مرآة الحرمين لابراهيم رفعت باشا ص٢٨١ ج١ طبع مطبعة دائرة معارف القرن الرابع عشر ـ العشرين سنة ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م .

الفصل السادس

هدايا الكعبة .. وآثارها .. ومعاليقها قبل الإسلام

أوائل من أهدوا إلى الكعبة

من تعاليق الكعبة: قرنا الكبش الذي فدي به إسماعيل

المعلقات من تعاليق الكعبة أيضا

هدايا الكعبة .. وآثارها .. ومعاليقها قبل الإسلام

١ ـ أوائل من أهدوا إلى الكعبة:

يبدو من كلام المؤرخين المسلمين أن أولى الهدايا التى قدمت الى الكعبة هي هدايا فارس ، في صدر الزمان .. فقد أهدى الفرس الى الكعبة لؤلؤاً وجواهر ، وقالوا : ان ساسان بن بابك هو الذى قدّم تلك الهدايا الى البيت الحرام .. كما قدم اليها جواهر وسيوفاً ، وغزالين من ذهب وذهباً كثيراً وقد دفن الغزالان الذهبيان فيما بعد في بئر زمزم ، ثم استخرجهما منها عبد المطلب ، وبقيا بالكعبة حتى سرق أحدهما "نفر" من شباب مكة الجاهليين كان منهم أبو لهب وابنه ، وأبو مسافع وآخرون ، في قصة أوردناها في غير هذا المكان من « كتابنا هذا » وقد قال المؤرخ المسعودي في كتابه (مروج الذهب) : ان ساسان أول ملوك ساسان ، وأبوهم الذي يرجعون اليه ، كرجوع ملوك المروانية الى مروان بن الحكم ، وخلفاء العباسيين الى العباس بن عبد المطلب .

وقال بعض شعراء الفرس :

وساسان بن بابك سار حتى ... اتى البيت العتيق يطوف دينا

وقد أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً قد دفن في زمزم(١) .

ومن أقدم الآثار بالكعبة ذلك الجب ـ أي البئر ـ التى حفرها ابراهيم عليه السلام ابّان بنائه للكعبة وقد جعلها مخزناً أميناً فيداخل

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢٦٥/١ .

الكعبة لهداياها ، وتقع على يمين الداخل اليها ، وعمقهـا ثلاث أذرع وتُوضع فيها هداياها وتُحفظ بهـا ، فلا يصِلها سـارق أو عـَاد أو غاصب'' ، ثم قُدّر أن حارس هذا الجُب أو هـذه الخـزانة الجرهمي قد استهواه بريق ذهب الجُب ، فاستغل وظيفـة حراسته للجُب فجمع هداياه الثمينة .. وقد انتظر مليًّا حتى هدأ النـاس في منازلهم بعـد الظهيرة فنزل الى الجب وجمع ما فيه وصعد به .. الى أعلاه ، ليأخذه الى بيته في غفلة من الناس ، وحدث أن هبطت عليه صخـَرة من فم الجُب عاقته عن الصعود ، وبقي مُعلقاً حتى أخرجه الناس ، وأخذوا ما حمله من الجُب وأعادوا ما وجدوه في ثوبه الى الجُب(٢) .

- وبسبب حادث هذه السرقة التي لم تنجح ، من الجُب ، لَقَّبَ عربُ الجاهلية سارِقَ الجُب المذكور « بالأخسف أو الأخشف » تسجيلا لحادث ذلك اللص الجُرهمي الذي أخفق في سرقته لهـدايا الجُب اذ حاصرته الصخرة الساقطة عليه من أعلى الجُب وعاقتـه عن تنفيـذ خطته على ما رووه لنا(٣) .

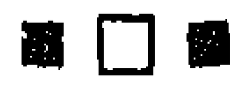
وقد مكث المال الذي في هذا الجُب ، ينمو بتتابع الهدايا عليه وقد ورد في كتاب الأزرقي عنـه قوله : (وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم ووجد بالجُب سبعين ألف أوقيـة من ذهب ، ممـا كان يُهدَى الى البيت فلم يحركه(٤) .

ويرى ابراهيم الحربي أن قُريشاً حفرت الجُب في جَوف الكعبة .. وهـذا نص قوله : (وكان البيت يُكَرَّمُ على وجه الدهـر ويُهدَى له ، فحفرت قريش في جوفه حفيرة يجعلون هداياهم في تلك البـئر ، يرتضون رجلا فيجعلونه على تلك البئر ، فبينما الرجل الذي ارتضوه عليها فسولت له نفسه خيانة فلما انقطعت الظـلال وخَفَّت المجالس

(٢) اخبار مكة لابي الوليد الازرقي باختصار ص٦٦/ج ط. المطبعة الماجدية بمكة المكرمة .
(٣) نفس المصدر السابق والجزء ص١٦٢ .
(٤) نفس المصدر السابق والجزء ص١٦٣ .

بسط ثوبه ثم أخذ منها ثلاثة مرار ؟ يحمله في ثوبه فَقَيَّضَ الله عليه منها حجراً في الثالثة ، فحبسه محنياً رأسه أسفله ، فراح الناس فأخرجوه وأعادوا اليها ما كان أخذ منها (٥) .

وهذا الرأي لا يتفق مع آراء أغلب الاخباريين الذين قالوا : ان الذي حفر الجُب هو ابراهيم عليه السلام . اللهم الا اذا كان ابراهيم الحربي ، يقصد الحفر الثاني للجُب عند بناء قريش للبيت رابع مرة ، فهذا قد يبدو أنه مقبول أكثر ان ثبت تاريخياً حدوثه .



٢ ـ من تعاليق الكعبة : قرنا الكبش الذي فُدِيَ به اسماعيل :

ومن الآثار العتيقة في البيت العتيق قرنا الكبش .. كبش الفداء الذي فدى الله به اسماعيل من الذبح ، وكان تعريضه للذبح بأمر من الله تعالى لنبيه ابراهيم عليهما السلام ، قبل بنايته للكعبة ، واسماعيل يومئذ غلام ، وقد أثبت أكابر الرجال الثقات بالأسناد المسلسلة أن القرنين المشار اليهما كانا مثبتين في جدار الكعبة بداخلها .. وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما رآهما أمر عثمان بن طلحة الجُمَحِي بسترهما بخمار ، لكيلا يشغلا المصلي في الكعبة .. ولكنه لم يأمر باخراجهما من الكعبة واتلافهما ، كما فعل مع الأصنام والصور .. بل استبقاهما في مكانهما من الكعبة ، وظلا به الى عهد الخليفة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما .

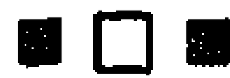
وقد تحدث عبد الله بن طلحة عنهما ، فأكد أنهما قرنا كبش الفداء ، وأنه رآهما رَأي العين ، وقد روى الأزرقي حديث النبي

(٥) ابراهيم الحربي : كتابه في المناسك واماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ص٤٨٦ . ويلاحظ القارىء الاضطراب اللفظي في بعض كلمات هذا النص وكان المحقق راى ان يقدم للقراء النص الاصلي كما كتب في النسخة التى لديه .. وخاصة في الكلمات التالية (سـ) ـ (ثلاثة مرار) (يحمله في ثوبه) . (في الثالثة) .

صلى الله عليه وسلم لعثمان بن طلحة . ونص هذا الحديث الشريف ، الذي خاطب به رسول الله ، عثمان بن طلحة هو : (اني رأيتُ قرني الكبش في البيت فنسيتُ أن آمرك أن تُخَمِّرَهُما فانه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل مصلياً) . قال عثمان : وهو الكبش الذي فُدِيَ به اسماعيلُ بن ابراهيم عليهما السلام . كما تحدث عمرو بن قيس بقوله : (وكان قرنا الكبش في الكعبة ، فلما هدَمَها ابنُ الزبير وكشفهما وجدوهما في جدار الكعبة مَطليَّيْنِ بمَشق .. « المشق : المُغرَةُ الحمراء » ـ قال فتناولهما فلما مَسَّهُمَا همدا من الأيدي(٦) .

أما جواد علي فيقول : (ويرمز القرنان الى قرني الكبش الذي ذبحه ابراهيم الخليل) . ويقول : انه نقل ذلك عن الأزرقي(٧) . والذي وَجَدتُهُ في تاريخ مكة للأزرقي لا يقول بذلك وانما الذي فيه نَصّاً أن القرنين هما قرنا الكبش الذي فُدِيَ به اسماعيل بن ابراهيم . وقد روى العلماء الاسلاميون والمؤرخون هذا القول عن الأزرقي ولم يشيروا الى أنه قال : ان القرنين رمزا الى قرني الكبش . وشتان بين أن يكونا هما قرني كبش الفداء بذاتهما وبذاته ، وبين أن يكونا رمزاً لهما .. أي صورة مجسمة لهما .

وربما كان جواد علي ، تبع في هذا القول كدأبه في أغلب الأحيان ـ المنهج الذي اختطه المستشرقون عندما يعالجون قضايا التاريخ العربي بالتفكير الغربي ، في جاهلية العرب وفي اسلامهم ، محاولة منهم لتزييف حقائق تاريخ العرب والاسلام ، اذ ينصبون أنفسهم (أوصياء) مفوضين على هذا التاريخ العربي أجمع .. فيرسمون لكل ذلك مخططات نابعة من البيئة الغربية الاستشراقية غربية النزعة والعناصر التى لا تَمُتُّ الى بيئة العرب ولا مفاهيمهم ولا تاريخهم بسبب أو صلة .



(٦) اخبار مكة للازرقي ١/١٤٧ .

(٧) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ لجواد علي ج٥ ص١٧٢ ط. مطبعة المجمع العلمي ببغداد سنة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م .

وبعد فان القرنين المذكورين قد ثبت أَثَرِيّاً وتاريخيّاً أنهما قرنا الكبش الذي فُدِيَ به اسماعيل ، وقد احتفظ العرب بهما نحو ألفي عام ونصف الألف كأثر قديم مهم من آثار حادث جلل وقع لجدهم الأعلى أبي الأنبياء ابراهيم وابنه اسماعيل ــ من الله عز وجل .. حتى جاء الاسلام فشوهدا على ما هو معروف ، لدى قريش ابَّان جاهليتهم . وفي طليعة من شاهدهما وأمر بسترهما بخمار لئلا يشغلا المصلى بداخل الكعبة عن صلاته لما لهما من تاريخ عريق ــ محمد رسول الله . وقد رآهما كثيرون من الصحابة والتابعين وقرر بعضهم أنهما قرنا الكبش بذاتهما .. واذن فما قرره الدكتور جواد علي ، هو رأي « مُكَيَّف'' » بمنهج المستشرقين في معالجة قضايا تاريخ هذه البلاد على أسواء الفروض والاحتمالات . وعلى ما يَرُوقُ لهم .. فقد نصبوا أنفسهم تلقائياً وافتئاتاً بغير ناصب ولا جازم في غياب مثقفي البلاد العربية والاسلامية ــ أوصياء على الفكر العربي مطلقي التصرف في تسيير دفة سفينة تاريخ أسلافنا . فَسَيَّرُوا قوافل تاريخهم لها في سبل لم تمر بها ، ولم يكن لها وجود ، ولم يكن لسفنهم البرية والبحرية المام بها ولا مرور عليها ولا اجتيازها ، لا في بلادهم ولا في حياتهم الماضية .

ومما يَدعَمُ أنهما قرنا كبش الفداء تواتُرُ ذلك لدى عرب الجاهلية عبر القرون الخالية الى أن جاء الاسلام, فأقر ذلك رسول الله الصادق المصدوق ، وأثبته الصحابة العدول ، في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى أيضاً .

٣ ـ المعلقات من تعاليق الكعبة أيضاً

هذا ومن تعاليق الكعبة قبل الاسلام على ما روته لنا بعض المراجع التاريخية .. المعلقات التى نظمها شعراء جاهليون معروفون من أهل الجزيرة العربيـة مهد العروبة والاسلام . وهي سبع معلقات أو عشر ، وقد سمَّاها العرب (معلقات) لأنهن عُلِّقنَ بالكعبة في الجاهلية

القريبة من عهد الاسلام تقديراً لروعة لغتهن وجمال أسلوبهن العربي الممتاز (على ما ورد في بعض المراجع التاريخية والأدبية العربية) . وكانت هذه القصائد تُلقى في ثلاث أسواق عربية هي : سوق عكاظ ، وسوقا مِجَنّةَ وذي المجاز ، وهذه الأسواق الثلاث تقع في أماكن متقاربة قريبة من مكة المكرمة . وتحوز القصيدة الملقاة في سوق من هذه الأسواق الثلاث استحسان الجمهور العربي المستمع لها في السوق المُلقاة فيها فتفوز بتقدير خاص وعام ، ويتمثل هذا التقدير المزدوج في تعليقها بالكعبة بعد أن تكون كُتبت على الحرير المصري بأحرف من الذهب .. وموضوعات هذه المعلقات غالباً هي : الحُبُّ ، والحرب ، وربما الحِكَمُ والصيد ، ومغامرات الشاعر في رَحَلاَتِهِ ، الى شي. من وصف الشاعر لمناظر طَبَعِيَّةِ للبلاد العربية التى ارتسمت في مخيلته بعد أن أعجبته أو أزعجبته ، ثمرة تكراره للمرور ، بها ، والنزول في مرابعها والاستمتاع بهوائها الطلق العليل وشمسها وبدرها المشرقين ونجومها الزاهرة وظبائها الجميلة العين ، من الأنسيات والوحشيات ، في ضوء وفي جمال الليالى المقمرة ذات الهواء السجسج العليل ، أو عكس ذلك .

وهذه القصائد هي من الشعر العربي الموزون المقفى .. وقد أقر ابن عبد ربه ، قضية تعليق القصائد السبع في الكعبة ونفاه ابن خلدون ، ومثلُه آخرون ، على انه لم يرد اسم المعلقات في مادة (علق) لا في (القاموس المحيط) ولا في (لسان العرب) ولا في كثير من مصادر الشعر العربي والأدب العربي القديمة(٨) .

---

(٨) قسم العرب القدامى كلامهم الى قسمين اثنين ولا ثالث لهما : القسم الاول النثر ، والثاني الشعر . وقرروا وأقروا ان الشعر من كلامهم ما كان موزونا ومقفى على الاوزان الشعرية المذكورة في كتب علم العروض .. والنثر ما كان غير ذلك من كلامهم أيًا كان .. فالشيء المستورد حديثا من الخارج في ركاب الغزو الغربي لديار الشرق الاسلامي بالنسبة لكلام العرب وعرفهم في لغة العرب يدخل في باب النثر العربي، وذلك بصرف النظر عنه ، بالنسبة لاعتباره لدى غير العرب من الشعر في اللغات الغربية وغيرها بخلاف اللغة العربية التي حدد الشعر والنثر فيها بدقة متناهية لا يكاد يوجد لها نظير في جل لغات العالم .

الفصل السابع

سدانة الكعبة قبل الإسلام

السدانة والحجابة في اللغة

سِدانةُ الكعبة قبل الإسلام

١ ـ السِّدانةُ والحجابةُ في اللغة :

في (لسان العرب) لابن منظور : (السادن خادم الكعبة وبيت الأصنام) والجمع (السَّدَنَةُ) . ومضى ابن منظور ، الى أن قال : (وكانت السدَانة واللواء لبني عبد الدار في الجاهلية ، فاقرها النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، لهم في الاسلام . ثم أوضح ابن منظور الفرق بين معنيي السادن والحاجب لغة .. فقال : (ان الحاجب يحجب واذنه لغيره ، والسادن يحجب واذنه لنفسه) ولكنه رجع عن هذه التفرقة اللغوية الجيدة عقب اقرارها مباشرة .. فقال : (والسَّدنُ والسِّدانة : الحجابة ، سدنه ، يسدنه ، والسَّدَنَة : حُجَّابُ البيت ، وقَوَمَةُ الاصنام في الجاهلية وهو الأصل(١) .

وقد فَصَّل لنا القولَ في موضوع السِّدانة قبل الاسلام ، ابنُ ظَهِيرَةَ القرشيُّ المخزوميُّ فقال : (وكانت السِّدانة قبل قريش لطسم قبيلة من عاد ، فاستخفوا بحقه أيضاً ـ أي بحق البيت ـ فأهلكهم الله ، ثم وَلِيَتهُ خُزاعة بعد جرهم دهراً طويلا حتى صار الأمر الى أبي غبشان ، فباع مفتاح البيت من قُصَيّ بن كلاّب ، بِزِق من خمر ، فقيل في ذلك : (أخَسُّ من صفقة أبي غبشان) . فذهبت مثلا ، وصارت حجابة الكعبة من بعد خُزاعة لِقُصَيَ ، وانتهى اليه أمر مكة بعد ذلك ، فأعطى ولده عبد الدار ، السِّدانة ، وهي الحجابة، وأعطى عبد مناف ، السِّقاية والرفادة ، ثم جعل عبدُ الدار ، الحجابة الى ولده عثمان(٢) .

---

(١) لسان العرب ص٢٠٧ م١٣ ط. دار صادر دار بيروت .
(٢) الجامع اللطيف في فضل مكة واهلها وبناء البيت الشريف لمحمد جار الله ابن ظهيرة القرشي ص١١٤ ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه بمصر سنه ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م .

ويرى جواد علي ، أن السدّانة والحجابة وراثيتان ، تنتقل بالارث من الآباء الى أكابر الأبناء ، وتنحصر في الأسرة فتكون من حقهـا ومن نصيبها ، ولا يمكن انتزاعها منها الا بقوة لا يمكن التغلب عليها . ومن واجب العشيرة التي تنتمي هذه الأُسرَةُ اليهـا الدفاع عنها ان حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها(٣) . والذي مَرّ بنا هو أن السدّانة والحِجابة (على رأي جـواد علي) لفظـان مترادفان ، فهمـا بمعنى واحـد ، وهـذا الرأي الذي قال به جـواد علي ، وهو : أن الحجـابة والسدّانة وراثيتان تنتقل بالارث من الآباء الى أكابر الأبناء وتنحصر في الأسرة ـ نَقَضَهُ جواد علي نفسه بعد بضعة أسطر فقال ما نصه : (غير أن هذا الحق لا يستوجب ولا يشترط أن تكون السدّانة في الأسرة من القبيلة أو الموضع الذي فيه بيت الصنم أو الأصنام ، فقد كان كثير من سَدَنَة الأصـنام من قبيلة لا ينتمي اليها من يقع بيت الصـنم في أرضها .. ثم ضرب الأمثال لهذا النقض ، بِبَنِي أنعُم في جُرَشَ ، ولبَني الغطـريف في قُدَيد ، وبني شـيبان في نخـلة ، وآل أمامة في تَبَالَةَ ، وهكذا(٤) . وكتفريع لرأيه حيال وجوب أن تكون السدّانة في أسرة من القبيلة أو الموضع الذي فيـه بيت الصنم أو الأصنام نراه يقول : (لقد كانت سدانة الكعبة في بني عبد الدار) ويبدو أن حديث جواد علي هنا غير مستوعب لمن كانوا سدنة الكعبة في بني عبد الدار ، وقد سدّ هذا الفراغَ نوعاً ما ، ابنُ ظَهيرَة فيما نقلناه عنه في مطلع هذا البحث .



(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ١٨٨/٥ .
(٤) نفس الجزء والكتاب والطبعة والصفحة المذكورة قبل هذا مباشرة .

الفصل الثامن

أحداث بالكعبة قبل الاسلام

محاولات هدم كعبة مكة

حلق بالكعبة كالنجم البخم

أثر خطي وجد في الكعبة منقوشا
على حجر أثناء عمارة قريش للكعبة

أحداثٌ بالكعبة قبل الاسلام

١ ـ محاولاتُ هدمِ كعبةِ مكة :

وقعت أحداث بالكعبة قبل الاسلام من أهمها وأقدمها ازماع تُبَّع أسعد أبي كَرِب أو ابنه حسان بن أسعد أبي كرب ـ هَدمَ الكعبةِ وَنقلَ حجارتها الى اليمن ، ليكون البيتُ اليَمَني الجنوبي ، كعبة محجوجة للناس بدلا من كعبة مكة الشمالية .

ولعل الباعث على هذه الخطة ـ ان صحت ـ هو داء الحسد الذي كان قديماً في البشر . ولعل معه دَافِعَ المصلحة الاقتصادية التي كثيراً ما تدفع الناس الى رسم خطط شتى ، فلربما كان يجول في خاطر أسعد أو ابنه على اختلاف الرواة أنه اذا هُدِمَتِ الكعبةُ المكية وأقيمت بدلا منها كعبة'' يمنية ، تنصرف التجارة والرخاء والتطور الى البلد الذي حُوِّلَ اليه حجُّ الناس ، وبَدَهيٌّ من التاريخ أن هذه الخطة مُنِيَت بالاخفاق ، وبقيت في حيز النيات التي لم تظفر بالبروز الى حيز الوجود .

فقد روى الاخباريون أن الحَبرَينِ اللذين أحضرهما تُبَّع هذا ، معه في رحلته من المدينة (يثرب) قادماً من غزوة له بالعراق في طريقه الى بلاده : (اليمن) ، قد نصحاه وأقنعاه بأن الخطة التي نوى تنفيذها تجلب له الشؤم والهلاك ، فان الكعبة بيت الله في حرم الله ، وخير له أن يكرمه وأن يعظمه .. ويكرم جيرانه .. فذلك أجلب للسعادة اليه ، وأبقى لِمُلكِهِ ، وأيمنُ لرحلته .. وقد عدل فعلا عن رأيه الأول حسب ما رواه الاخباريون في قصة قدومه الى مكة وتَحَوُّل فِكرِهِ

من الحالة السلبية بالنسبة للكعبة ، ولأهل مكة ـ الى حالة ايجابية طيبة ، فدخل مكة وعظّمَ الكعبة وكساها من ثياب اليمن الفاخرة وأطعم جيرانها ، وظل أمداً قصيراً بين ظهرانيهم ، وكُلُّ همه دَعمُ ظَاهِرَةِ الاعتراف بقدسيةِ الكعبة ، وفضل جيرانها في الوَسَط المكيّ خاصة، والعربيّ عامة ، ثم بعد ذلك ارتحل الى بلاده اليمن ، ولعل ذلك الحادث الذي أزمع تنفيذه كان هو الهاجس الباطنيّ الذي حفز أبرهة الحبَشيَّ الذي مَلكَ اليمن برهة من الزمن من بعد تُبَّع : أسعد ، أو حسان ابنه ، قدر بنحو عشرة قرون لدى بعض المؤرخين الاسلاميين واسعي الاطلاع والنظر .

فقد حاول أبرهة أيضاً ، تنفيذ خطة هَدمِ الكعبة ونَقلِ شعائر الحج برمتها بعد ذلك الى البيت الفخم البناء الذي أقامه في صنعاء ، وقد تقدم نحو مكة غازياً لها ، من الجنوب بجيش عرمرم مشترك ، يَدعَمُ هيبته الفيلُ ، والملكُ العريض الطويل .. وسار قُدُماً حتى بلغ مشارف مكة أو مداخلها ، وقد ذُعِرَ أهلُ الحرم من مقدم هذا الجيش الضخم الذي لا قِبَلَ لهم بوقف زحفه فأحرى دفعه الى الوراء .

وهكذا اضطرب المجتمع العربي الجاهليُّ ، وتجسدت هذه الظاهرة وتركزت في انزعاج قريش عامة وسيد مكة عبد المطلب بن هاشم خاصة ، لما أيقنوا بأن أبرَهَة قادم لا محالة لتحقيق هدفه الخطير ، وقد لجأ عبد المطلب الى الله جل وعلا وحده ، وتشبث بِحَلَقاتِ (١) باب الكعبة ورفع ابتهالا حاراً مخلصاً الى الله سبحانه يدعوه بحرارة وخضوع في أبيات شعرية بليغة ، جهر فيها بأن الله القوي العزيز هو القادر وحده على هَزم أبرهة ودحر جيشه العرمرم ، وحماية بيته المحرم ، وبلده الحرام من مكره الكُبَّار ..

(١) سياتي مباشرة في هذا الفصل بالذات انه كان للكعبة حلقات كلنجم البهم يدخل فيها الخائف يده فلا يريبه احد .

يقول عبد المطلب :

لا هُمّ(٢) ان العبــــد يمنــــ	ـــع رحـــله فامنـــع رحَالك
لا يغلـــــبن صــــليبُهم	ومِحَالهُم عَــــدوا مِحَالك
ان كُنتَ تاريكهـــم وقبلتنـــا	فامـــر ما بـــــدا لك

وكان ما هو مذكور في القرآن الحكيم .. من اهلاك الله لجيش أبرهة الأشرم واهلاكه له مع جيشه بالحجارة التى هي من سجيل ، التى ألقاها عليهم طير أبابيل ، وقد جعل الله كيدهم في تضليل ، فجعلهم كعصف مأكول .. وسار دَوِيُّ ذكريات الحادثة الرهيبة التى كانت ارهاصاً بليغاً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان مولده في مكة نفسها ، في عام الفيل نفسه ــ سار دَوِيُّ ذكريات تلك الحادثة الرهيبة في أرجاء الجزيرة العربية جمعاء .

هذا ويحدثنا عباس محمود العقاد في كتابه : «مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية » بقوله : (ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغنى عنها (عن الكعبة) بتحويل الطريق منها أو هدمها ، فلم تفلح ، وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها ، وهي قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم في التوراة ، فانها هي «ميشة» المشار اليها في سفر التكوين ، وهي « ميشا » التى يقول الرحالة « برتون » : انها كانت كذلك بناءاً مقصوداً لعبادة أناس من الهند . ويقول الرحالون الشرقيون انها كانت بيتاً مقصوداً للصابئين الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون ، ونرجح نحن ترجيح الظن ان سكان شواطىء الهند والخليج وجدوا فيها ساحة لعبادة أربابهم العلوية وأفلاك السماء كلما ترددوا عليها في تجارتهم من أقدم عهود التاريخ)(٣) .

---

(٢) معنى (لاَ هُمّ) : اللهم : فهي احدى تخفيفات العرب لبعض كلماتهم كثيرة التداول .
(٣) مطالع النور أو طوالع البعثة المحمدية ، لعباس محمود العقاد ص١٨٠ ط. مطبعة المدني بالقاهرة.

وبعد فقد وأدت قدرة الله وحده فكرة هدم الكعبة مرتين في تاريخها قبل الاسلام ، مرة في عهد تُبَّع أسعد أبي كرب أو ابنه ملك اليمن حسان ، ومرة أخرى في عهد أبرهة الأشرم ، الذي تحدى قدرة الخالق العظيم ، فأرداه ودمر جيشه الضخم في اللحظات التى كان فيها على شفا قطف ثمار النصر المؤزر الذي سمى اليه من جنوب بلاد العرب في نطاق أ'بَّهَةِ مُلك كبير ، وعنجهية طاغية باغية متهورة مسعورة ..

٢ ـ حَلَقٌ بالكعبة كالجُحم البَهِم :

ومن تلك الأحداث التى حصلت قبل الاسلام ما روي عن حويطب ابن عبد العزيز قال : « كانت فيَ الكعبة حِلَقٍ ـ بكسر الحاء وفتح اللام ـ (جمع حَلقَةٍ) أمثال لُجُمِ البهم يدخل الخائف فيها يده فلا يريبه أحد .. فجاء خائف ليدخل يده ، فاجتذبه رجل فَشُلَّت يده قال حويطب بن عبد العزيز : (رأيته في الاسلام وانه لأَشَلُّ)(٤) .

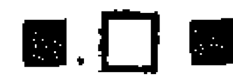
٣ ـ أثر خطي وجد في الكعبة منقوشا على حجر أثناء عمارة قريش للكعبة :

ويروي أبو الوليد الأزرقي في كتابه أخبار مكة في ذلك بسنده المتصل الى علي بن أبي طالب رضى الله عنه قوله :

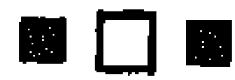
« لما احترقت الكعبة في الجاهلية هدمتها قريش ، لتبنيها ، وكشفت عن ركن من أركانها من الأساس فاذا حجر فيه مكتوب : (أنا يعفر بن عبد قرا .. أقرأ على ربي السلام .. من رأس ثلاثة آلاف سنة» : وأقول تعليقاً على العثور في الجاهلية القريبة من صدرِ الاسلام على هذا الحجر الأثري حين عمارة قريش للكعبة : ربما كان وجوده في المكان الذي عثر عليه فيه ـ سابقاً لبناء ابراهيم عليه السلام للكعبة لأول مرة .. وقد نقله أو نقل بعده الى أساسها تخليداً له وحفظاً من عاديات الزمان لأنه ينطق بما يقره دين الاسلام منذ عهد أبي الأنبياء ومن جاء

(٤) اخبار مكة للازرقي ص١٠٦ جـ١ طبع المطبعة الماجدية بمكة .

بعده من الأنبياء من الاعتراف لله وحـده بالربوبية .. واذا كان هـذا واقعاً فهو يدل فيما يدل عليه على أهمية الآثار التي تنطق بالحق الساطع المبين بالنسبة لتعاليم الاسلام وتوجيهاته .. وبالنسـبة لتخليـد ذكره واقامة مناره ـ بدلائل خالدة منها شواهد الآثار العتيقة مثل هذا الأثر الكتابي الذي مكث في أسـاس الكعبة حتى كشـفه من كشـفه في عهد عمارة قريش للكعبة المشرفة في عمارتهـا الرابعـة قبل الاسلام . والله أعلم . وهو الهادي الى سواء السبيل .



وقد قلنا ما قلناه عن دفن كتابة هـذا الأثر النفيس وزمن نقشـه لأول مرة ووضـعه في داخـل أسـاس الـكعبة ـ ان وضعه في مـكانه المستكشف فيه ربما كان بعد زمن نقشه من كاتبه (يعفر بن عبد قرا) بأمد وذلك لأن ما نعرفه من التـاريخ ان بين ابراهيم عليـه السـلام وحفيده محمد صلى الله عليه وسلم زهاء ألفي عام ، ومن عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الى وقتنا الحاضر ألف عام وقرابة نصفالألف، وبذلك يتم نحو أربعة آلاف سنة للعصر الابراهيمي أخذاً من متوسط آراء المؤرخين الاسلاميين القدامى .



الفصل التاسع

آثار بالكعبة وآثار حولها قبل الإسلام

الحجر الأسود

حجر إسماعيل والحطيم والملتزم

ميزاب الكعبة وضع قبل الإسلام

حفر بئر زمزم قبل الاسلام للمرة الثانية كان في العصر القرشي

كيف نبع ماء بئر زمزم

المطاف والطواف بالبيت العتيق قبل الإسلام

هذه صورة ثمانية قطع من نفس الحجر الأسود

وكان ذلك في غرة ربيع الأول سنة ١٣٧٦ ست وسبعين وثلاثمائة وألف



أخذناها أولاً بأن وضعنا على الحجر ورقة خفيفة ثم رسمناها بالقلم

أخذ هذه الصورة محمد طاهر الكردي

آثار بالكعبة وآثار حولها قبل الإسلام

١ ـ الحجر الأسود :

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : ان الحَجر الأسود جاء به جبريل ، الى ابراهيم عليهما السلام، من السماء .. وليس معنى ذلك بالطبع أنه نيزك كما ز عم بعض المستشرقين ومن سار على دربهم ، فالنيزك جسم صغير القَدْ ، شارد في الفضاء يعبر الأجواء الأرضية وقد يستقر على الأرض(١) والحَجر الأسود لم يرد في التاريخ انه عبر الأجواء الارضية واستقر على الأرض ثم التقط .. وانما ورد غير ذلك في التاريخ .. كما قدمناه آنفاً ، وجَعلُه نيزكاً محض افتئات من المستشرقين وبخاصة انهم لم يحللوه كما لم يشهدوه ، ولم يشهد سواهم سقوطه من الجو الى الأرض واستقراره فيها .. رغم التقاطه منها فيما بعد على حد زعمهم..

وقد نص المؤرخون على أن جبريل الأمين قدمه الى أبي الأنبياء لكي يضعه في موضعه من الكعبة ، ليكون علامة بدء الطواف بالكعبة ولسنا ملزمين بأن نصدق تأويلات غير مسندة ونهمل ما أثبته تاريخنا العريق الحصيف المسلسل لمجرد تخيلات وتخمينات وهمية غربية مستوردة من الخارج .. وقد كشف لنا الرواة الأثبات أنه كان حجراً أبيض اللون ، ناصع البياض ، ولكن الحرائق التي أصابت الكعبة أحالته الى لونه الأسود الحالى كما أثبتت أنه جيىء به من السماء .
وعلى صفته المذكورة آنفاً ظل تقديسه لدى الناس من عهد ابراهيم

(١) الموسوعة في علوم الطبيعة تاليف ادوار غالب ٥٩٢/٢ طبع بيروت . وفي الموسوعة الميسرة : انه شهاب غير تام الاحتراق تصل اجزاؤه الى الارض ـ (مادة نيزك) وفي غيرها ايضاً كذلك .

أبي الأنبياء حتى الآن . ولم يكن قط تقديسه تقديس عبادة لا في الجاهلية ولا في الاسلام ، كما يزعمون ، فالروايات التاريخية الصحيحة الحقة تثبت عكس ذلك تماماً .

ومن هؤلاء المستشرقين الزاعمين أن الحَجر الأسود نيزك : « كارل بروكلمان » في كتابه المُشَايِع لرأي زميله : «هنري لامنس اليسوعي» المعروف بالانحراف المتعمد في كثير من آرائه ، ومنها رأيه هذا في عبادة الحَجر الأسود(٢) .

٢ ـ حِجْرُ اسماعيل والحطيمُ والملتزمُ :

حِجرُ اسماعيل : هو ما يحيط به جدار قصير بشمال الكعبة على شكل نصف دائرة ، وكان ابراهيم جعله عريشاً الى جانب الكعبة ، وكان حظيرة لغنم اسماعيل على ما ذكره أبو الوليد الأزرقي في كتابه (أخبار مكة) وقد قال ذلك غيره من المؤرخين القدامى أيضاً .

والحَطِيمُ : هو نفس حِجر اسماعيل ، وقد استُدِلَّ على هذا بما ورد في حديث الصحيحين من أن المراد بالجدر هو حِجر اسماعيل .. وجاء في « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، أن الحطيم هو الجدر ، والجدر كما ذكرنا آنفاً هو حِجرُ اسماعيل نفسه .

ومعلوم أنه لم يكن في زمن الجاهلية للمسجد الحرام نفسه سور يحدده وانما حدث ذلك في عهد الاسلام(٣) .

وقد عللوا تسمية الحِجر بالحطيم .. بأن الناس كانوا يزدحمون على الدعاء فيه ويحطم بعضهم بعضا ، وأوردوا أن عمر بن الخطاب رضي الله

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية (العرب والامبراطورية العربية) ص٢٥ و٢٤ ج١ لبروكلمان ، نقله الى العربية نبيه امين فايز .

(٣) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، للسيد محمود شكري الألوسي ص٣٢٤ ومقام ابراهيم عليه السلام لمحمد طاهر الكردي المكي الخطاط ص٨٢ .

عنه قد جلس في الحِجر وأرسل الى رجل من بني زهرة قديم، فسأله عن بنيان الكعبة ، فقال : ان قريشاً تَقَوَّت في بنائها ، فعجزوا واستقصروا ، فبنوا وتركوا بعضها في الحِجر فقال عمر : صَدَقتَ(٤) .

وقيل : ان الحطيم ، اسم مشترك يُطلَقُ على ثلاثة مواضع : حِجر اسماعيل ، والمُلتَزَم ، وما بين زمزم والمقام والكعبة .

ورَوَوا عن ابن الزبير أنه مر بعبد الله بن عباس بين الباب والركن الأسود ، فقال : « ليس ها هنا المُلتَزَم .. الملتَزم دُبُرَ البيت » .

و « الحطيم » على وزن فعيل بمعنى مفعول ، مثل جريح بمعنى مجروح ، أو فعيل بمعنى فاعل مثل حكيم : حِجرُ الكعبة المخرج منها، وهو حِجرُ اسماعيل نفسه كما قدمناه . وفي (تاريخ العرب ـ قبل الاسلام) لجواد علي ، ذلك أيضاً .

وأضاف قوله : (وفي الصحاح عن ابن عباس : الحطيم : الجدار . بمعنى جدار حِجرِ الكعبة . والحطيم بين الركن وزمزم والمقام(٥) وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده(٦) كما كانت الجاهلية تتحالف عند المُلتَزَم بالأيمَانِ ، وتدعو على الظالم ، وتعقد الحلف(٧) . وفي الناحية الشمالية الغربية « الحِجر » أو « الحطيم »(٨) . وقال أبو زيد : (فعلى هذا ، الحطيمُ : الجدارُ من الكعبة ، والفضاء الذي بين الباب والمقام ، وعلى هذا اتفقت الأقاويل والروايات(٩) .

هذا وقد لخص كتاب « تاريخ الكعبة المعظمة » الأقوال المتعلقة بما يسمى الحطيم ، بقوله : « نعلم مما تقدم أن الحِجرَ يُعرف بالحطيم

---

(٤) اخبار مكة للازرقي ٩٩/١ طبع المطبعة الماجدية بمكة سنة ١٣٥٢هـ .
(٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢١٨/٥ .
(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة ـ عن مراجعه .
(٧) نفس المصدر والجزء والصفحة ٢١٩ .
(٨) نفس المصدر والجزء والصفحة ١١٨ منه .
(٩) تاريخ الكعبة المعظمة ص١٦١ لحسين عبد الله باسلامة المكي ط. دار مصر سنة ١٣٨٤هـ ـ١٩٦٤م .

أيضا قديماً وحديثاً ، كما أن المُلتَزَم يُعرف بالحطيم أيضا ، وما بين زمزم والمقام والكعبة يسمى بالحطيم » .

٣ ــ ميزاب الكعبة وضع قبل الإسلام :

لم يكن في بناء ابراهيم عليه السلام للبيت الحرام مكان لوضع ميزاب ولذلك لم يوضع في تلك العمارة ميزاب للكعبة بطبيعة الحال ، اذ لم يكن في بنائها سقف ولا سطح . واذا كانت العماليق وجُرهُم بنوه من بعد ابراهيم عليه السلام كما نصت عليه الروايات فلسنا ندري حقيقة هذا البناء ، ولا تفاصيله ، اذ لم تكشف لنا اللثامَ عنه رواياتُ الاخباريين التى بين أيدينا الآن .

ويوجد في عبارة وردت في كتاب (أخبار مكة) في الفصل الذي عنوانه : (ما جاء في الصلاة في وجه الكعبة) ــ نَصٌ يدل على أن الميزاب كان موجوداً بالكعبة في الجاهلية منذ بناء قريش للبيت قبيل الاسلام ، ونص العبارة : (قال عبد الله بن عمرو بن العاص : البيت كُلُه قبلة ، وقبلته وجهه ، فان أخطاك وجهُهُ فقبلة النبي صلى الله عليه وسلم . وقبلة النبي صلى الله عليه وسلم ما بين الميزاب الى الركن الشامي الذي يلي المقام (١٠) .

والواقع أن الميزاب كان موجوداً على سطح الكعبة منذ بناية قريش لها في العهد الجاهلي الأخير ، فحسب ، فقد قال الأزرقي : (وجعلوا ــ أي قريش ــ ميزابها يسكب في الحِجرِ) بكسر الحاء وسكون الجيم(١١) .

---

(١٠) اخبار مكة ج ٣٢٩/١ طبع مكة .

(١١) اخبار مكة للازرقي ج ١٠٤/١ .

وينص حسين عبد الله باسلامة على أن : (أول من وضع ميزاباً للكعبة قريش حين بنتها سنة ٣٥ من ولادة النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت قبل ذلك بلا سقف ، كما تقدم تفصيله(١٢) .

٤ ـ حفر بئر زمزم قبل الاسلام للمرة الثانية كان في العصر القرشي :

مما أُثِرَ عن العرب في كلامهم أن كثرة الأسماء للمسمى الواحد ـ تدل على شرف المسمى وأهميته ..

وقد ذكر المؤرخون أسماء عديدة لبئر زمزم وهي حسب ما يلي تبيانه : هَزمَةُ جبريل ، سقيا الله اسماعيل ، بركة ، سيدة ، نافعة ، مضنونة ، صافية ، بَرَّةُ ، عافية ، مغذية ، طاهرة ، حرمية ، مؤنسة ، طعام طعم ، شفاء سقم ، سابقة ، ظبية .. (سميت بهذا الاسم تشبيهاً لها بالظبية وهي الخريطة) تكتُمُ ، شُبَاعة . ايصال ، شراب الأبرار ، قرية النمل ، هَزمَةُ اسماعيل ، حفيرة العباس ، نقرة الغراب .

وشَرَحَ الأزرقيُّ اسمها هذا : نُقرةَ الغراب ، بأن عبد المطلب لما أُمِرَ بحفر زمزم ونُبِّهَ الى ذلك وقيل له : (عند نُقرة الغراب الأعصم) جاء الى المسجد باحثاً عن موضع الحفر بما رآى في نومه من العلامات فبينما هو على ذلك اذ نُحِرَت بقرة عند الحَزْوَرة فانفلتت من الذابح تجرى حتى غلبها الموت في موضع زمزم فَجُزِرَت في ذلك الموضع ، فأقبل غراب يهوي حتى وقع في الفرث فبحث عن قرية النمل فقام عبد المطلب فحفر هناك . ومعنى : « الغراب الأعصم » لغة : الغراب الذي في جناحه ريشة بيضاء .

واسم زمزم (مُختَلَف'' في سبب تسمية بئر زمزم به) فقيل لكثرة ماء البئر : فان من معاني الزمزمة عند العرب الكثرة والاجتماع . أو

(١٢) تاريخ الكعبة المعظمة ص١٨١ .

أن أصل تسميتها بزمزم هو من صوت الماء . أو لأن الفـرَس كانت تحج في الزمن الأول ، فتزمزم عليهـا ، والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء على ما قاله المسعودي . وروي أن عمر رضي الله عنه كتب الى عـُمـّاله بأن ينهوا الفرس عن الزمزمة ، وأورد المسعودي في كتابه : (مروج الذهب) :

زمزمت الفـــرس عـــلى زمزم ... وذاك في ســـــالفها الأقـــــدم

هذا وقد زاد ياقوت الحمـوي في أسماء زمزم : زُمـَمَ ، وزمازم ، وركضة جبريل ، وهي كما نرى بمعنى هزمة جبريل السابق ذكرها . ففي (لسان العرب) : وجاء في الحديث في زمزم : أنهـا هزمة جبريل عليه السلام .. أي ضربة برجله فانخفض المكان فنبع المـاء ، وقيل : معناه أنه هزم الأرض أي كسر وجههـا عن عينهـا حتى فاضت بالمـاء الرّواء : (مادة هزم) . وفي (لسان العرب) أيضـاً : ركض الأرض والثوب : ضربهما برجليـه معـاً : (مادة ركض) وهزمة المَلـَك . وهذان الاسمان : الهزمة والركضة .. هما اختصار للكلمتين السابقتين: ركضة جبريل، وهزمة جبريل فليستا باسمين مستقلين، كما أن الشـُباعـَة . وشباعة : هما في الواقع اسم واحد فهذه ثمانيـة وثلاثون اسماً لبئر زمزم .

ويبدو أن أغلب هذه الأسماء اسـلامية وأقلها فيما يبدو جاهلي . مثل زمزم . ومثل شباعة : الاسم الذي ورد نص صريح عن ابن عباس يقول فيه راويه : (سمعت ابن عباس يقول : كانت تسمى في الجاهلية « شـبـاعة » يعني زمزم ، ومثـل (المضـنـونة) التي روى الزبـيـر : أن عبد المطلب قيل له : (احفر المضنونة ، ضـَنـَنـْتُ بهـا على النـاس الا عليـك) .. ونـَصَّ (معجم البلدان) ليـاقوت على أن المضنونة اسم جاهلي للـكعبة .. وكذلك قـُل في كل من أسماء بئر زمزم التاليـة : (ظبية وَبرَّة) استناداً على ما ورد في كتاب أخبار مكة ، لأبي الوليـد

الأزرقي من حديث عبد المطلب عن علي بن أبي طالب .. قال الراوي عبد الله بن يزيد اليافعي : انه سمع علي بن أبي طالب يحدث حديث زمزم حين أُمِرَ عبد المطلب بحفرها قال : قال عبد المطلب : اني لنائم في الحِجرِ اذ أتاني آت فقال : احفر ظبية . قال : قلت : وما ظبية ؟ قال: ثم ذهب عني فرجعت الى مضجعي فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر بَرَّةَ : قال : فقلت : وما بَرَّةُ ؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان من الغد رجعتُ الى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال : احفر زمزم(١٣) الخ .

وقد ورد اسم زمزم في الشعر الجاهلي ، ومن ذلك قول مسافر بن عمرو بن أمية بن عبد شمس يمدح عبد المطلب :

فايُّ مَنَاقِبِ الخيرات لم تشدد به عَضُدا
ألم تَسق الحجيج وتنحَر المِدلاَيةَ الرفدا ؟!
وزمزم من ارومتها وتَفقا عَيْنَ من حسدا(١٤)

٥ ـ كيف نبع ماء بئر زمزم:

زمزم بئر سحيقة القدم .. نبع ماؤها في الطفولة المبكرة لاسماعيل ابن ابراهيم ، حينما كان رضيعاً في حضانة أمه هاجر ، في مكة عندما قدم بهما والده اليها ، واستبقاهما في وادي ابراهيم ، وقد نال اسماعيلَ ظَمَأٌ شديد ، وكانت أمه وحيدة في الوادي ، ليس معهما فيه عريب''(١٥) . فصارت من شدة هلعها على ابنها أن يموت ظمأ وجوعاً ، تسعى بين جبلي الصفا والمروة سبع مرات . وقد تركته وحيداً يتشحط من الجوع والظمأ في مكانه . فتحملت مشقة السَّعي بين الجبلين اللذين هما الصفا والمروة ، لعلها ترى أحداً بالوادي..قال ابن عباس :

(١٣) اخبار مكة للازرقي ص٣٤ ج٢ ط. المطبعة الماجدية بمكة .
(١٤) اخبار مكة لابي الوليد الازرقي ص٣٧ ج٢ ط. المطبعة الماجدية بمكة .
(١٥) اخبار مكة لابي الوليد الازرقي ص٣٠ ـ ٣١ باختصار مني .

(قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروة) . ثم حدث أن سَمِعَت صوتاً ولم يكن معها أحد غيرها فقالت : (قد أسمع صوتك فأغثني ان كان عندك خير) فخرج لها جبريل عليه السلام فاتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر ، فظهر ماء فوق الأرض ، حيث فحص جبريل .. يقول ابن عباس : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : (فأحاضته) أمُ اسماعيل أي حاطته وجمعته ومنه اشتق « الحوض » الذى هو مجتمع الماء ـ بتراب تردّه خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بِشَنَّتِها ـ أي قربتها الخلقة الصغيرة ..

يقول أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : (ولو تركته أم اسماعيل كان عيناً مَعيناً يجري) . ويقول ابن عباس : (فجاءت أم اسماعيل بِشَنَّتِها فاستقت وشربت وردت على ابنها .. فبينما هي كذلك اذ مَرَّ ركب من جرهم قافلين من الشام في الطريق السفلى(١٦) فرأي الركب الطير على الماء ، فقال بعضهم : ما كان بهذا الوادي من ماء ولا أَنيس . قال ابن عباس : فأرسلوا جَرِيَّين حتى أتيا أم اسماعيل فكلماها ، ثم رجعا الى ركبهما ، وأخبراهم بمكانها ، فرجع الركب كلهم حتى حيوها فردتعليهم، وقالوا : لمن هذا الماء ؟ قالت أم اسماعيل: هو لي ! ، قالوا : أتأذنين لنا أن نسكن معك عليه ؟ قالت : نعم . قال ابن عباس : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : (أَلفَى ذلك أمَّ اسماعيل وقد أحبت الأُنس) فنزلوا وبعثوا الى أهليهم فقدموا وسكنوا تحت الدَّوحِ واعترشوا عليها العُرُشَ ، فكانت معهم هي وابنها (ومعنى الدَّوحِ : الشجر الضخام) ..

كانت تلك قصة ظهور ماء بئر زمزم لأول مرة في التاريخ السحيق ثم كان أن اندثرت واختفى مكانها .. حتى اذا قضى الله على جيش

(١٦) الطريق السفلى ، لعل المراد الطريق الذي يسير الى جانب البحر الاحمر حتى اليوم وهي طريق قوافل الابل قديماً من جنوب بلاد العرب الى شمالها ، ومن شمالها الى جنوبها .

أصحاب الفيل وسلم بيته الحرام وأنجاه وأنجى مكة وأهلها من كيد الطاغية الغازي أبرهة وجيشه العرمرم عندئذ أُمِرَ عبدُ المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم في حِجرِ اسماعيل بأن يحفر بئر زمزم ، وأُكِّدَ عليه الطلب ، وأُرِيَ مكانَها وبُيِّنَ له في المنام فأزمع أن يقوم بحفرها برغم المعارضة الشديدة التى واجهها من قريش ، وقد وجد في بطن أرضها ـ أرض زمزم ـ سيوفاً قديمة ، فبنى على زمزم حوضاً ، كما فَعَلَت مبدئياً جدَّتُهُ (هاجِرُ أم اسماعيل) من قبله بقرون عديدة اذ أحاطت ماء زمزم النابع من جوف الأرض ، بتراب . فكان عبد المطلب يسقى الحاج من ذلك الحوض ، وكان حفره لزمزم في موضعها الذي هي فيه حتى الآن ، وقد حفرها بين الصنمين .. اساف ونايلة .

٦ ـ المطاف والطواف بالبيت العتيق قبل الإسلام :

يقول (لسان العرب) : وطاف بالبيت وأطاف عليه : دار حوله . قال أبو خراش :

تطيف عليه الطير وهو مُلَحَّبُ ... خلاف البيوت عند محتمل الصرم

وقوله عز وجل : « وليَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق » هو دليل قائم على أن الطواف بالبيت يوم النحر فرض ، ثم قال : المطاف : موضع المطاف حول الكعبة(١٧) وفي الحديث ذكر الطواف بالبيت (وهو الدوران حوله) (مادة طوف)(١٨) . هذا وقد سبق لنا أن أوردنا قول ابن الكلبي : (واستُهتِرَتِ العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت ، نصب حَجَراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب فاذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والاوثان وسموا طوافهم

(١٧) قوله : والمطاف موضع المطاف .. لو قال : والمطاف موضع الطواف لكان اوضح وافصح .
(١٨) لسان العرب « مادة طوف » طبع بيروت وغيرها .

الدّوار ، ويضيف الى ذلك أنهم (كانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها ـ وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها ، يحجونها ويعتمرون اليها)(١٩) .

وعلى هذا فيمكن لنا أن نستنتج من طوافهم حول الأصنام وتسميته (الدوار) أن أصل هذا الطواف لديهم ربما كان معروفاً ومخصصاً بالكعبة وحدها .. ثم لما عبدوا الأصنام واستُهتِروا بعبادتها على ما أفادنا به ابن الكلبي نقلوا اسم الطواف من الكعبة الى الأصنام والأوثان ، ثم فرقوا بين الدوران بها فجعلوا (الطواف) خاصاً بالدوران حول الكعبة ، و (الدوار) خاصاً بالطواف حول الأصنام ، بالنظر لاختلاف الطوافين وواقعيهما وأساسيهما وللتمييز بينهما .

ومن (الطواف) اشتقوا في لغتهم كلمة (المطاف) لأن صيغة (مَفعَل) اذا جاءت من كلمة ذات اشتقاق دلت على الموضع الذي يحدث فيه ذلك الفعل . فالمطاف اذن بمعنى (محل الطواف) مثل المَدار والمَجال ، بمعنى : (موضع الدوران والجولان) .. وهكذا أبقوا اسم (الطواف) على ما كان عليه . خاصاً بالدوران حول البيت وحده .. ومطاف البيت الذي هو حول البيت في الجاهلية كان فضاء رحباً ، وكان هذا المطاف ذا فائدتين مزدوجتين لعرب الجاهلية ، فكانوا يطوفون في المطاف حول الكعبة . ويتخذون منه أيضاً مكان سَمَر ومباحثات في شؤونهم الخاصة والعامة ، ولم يكن المطاف مكاناً مُحَدّداً في الجاهلية كما أصبح حاله في الاسلام بل كان واسعاً ، لا يحيط به جدار أو شبه جدار ولا رصيف أو شبه رصيف .

(تم الكتاب بعون الملك الوهاب)

---

(١٩) الاصنام لابن الكلبي ص٣٢ .

الفهارس العامة
لكتاب التاريخ المفصل
للكعبة المشرفة قبل الإسلام

تأليف :
عبد القدوس الأنصاري

(فهرس الأعلام)

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ر)

فهـــرس الأماكن

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهـــرس المراجـــع

اخبار مكة : الأزرقي
الاكليل : الحسن الهمداني
أسماء الكعبة المشرفة ـ محمد المكي بن الحسين
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ محمود شكري الآلوسى
تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي
تفسير ابن كثير ـ ابن كثير
التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر بن عاشور
تاريخ الكعبة المعظمة ـ حسين عبد الله باسلامة
تاريخ الشعوب الاسلامية ـ بروكلمان
الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف : ابن ظهيرة القرشي
ديوان حسان بن ثابت ـ حسان بن ثابت الأنصاري
ديوان النابغة الذبياني ـ النابغة الذبياني
ديوان زهير بن أبى سُلمى (شرح) ـ ثعلب
ديوان الأعشى ـ ميمون بن قيس الأعشى
دائرة معارف القرن الرابع عشر العشرين ـ محمد فريد وجدي
رحلة العبدري (محمد بن محمد)
سيرة ابن هشام ـ محمد بن هشام
صحيح البخاري ـ اسماعيل البخاري
صحيح مسلم ـ مسلم
الأصنام : أبو المنذر هشام بن السائب بن الكلبي
فتح الباري بشرح صحيح البخاري : الحافظ ابن حجر العسقلاني
القاموس المحيط ـ جار الله محمد بن يعقوب الفيروزآبادي
لسان العرب ـ محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري
معجم البلدان ـ ياقوت الحموي
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ـ محمد فؤاد عبد الباقي
مروج الذهب ـ المسعودي
معجم متن اللغة ـ أحمد رضا
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي
الملقات العشر الطوال ـ جمع
المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ـ ابراهيم الحربي
معالم تاريخ الانسانية ـ (ولز) تعريب عبد العزيز توفيق جاويد
مطالع النور أو طوالع البعثة المحمدية ـ عباس محمود العقاد
مقام ابراهيم عليه السلام ـ محمد طاهر الكردي الخطاط المكي
مرآة الحرمين ـ ابراهيم رفعت باشا
الموسوعة في علوم الطبيعة ـ ادوار غالب

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

« أراني ليلة عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال له لِمّة من أحسن ما أنت راء من اللمم ، قد رجّلها تقطر ماءاً ، متكئاً على رجلين، أو على عواتق رجلين ، يطوف بالبيت.. فسألت : من هذا ؟ فقيل : المسيح بن مريم » — ص٧

وقال صلى الله عليه وسلم بعد ما كسر الأصنام المنصوبة حول الكعبة : « جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » ثم أمر بها فكفئت — ص٨

« هذه القبلة ! » — ص٢٠

عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « نهى عن سب أسعد الحميري وهو تبع ... » وكان قال : « بلغني أنه هو أول من كسا الكعبة » — ص٥٩

روى عثمان بن طلحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له :

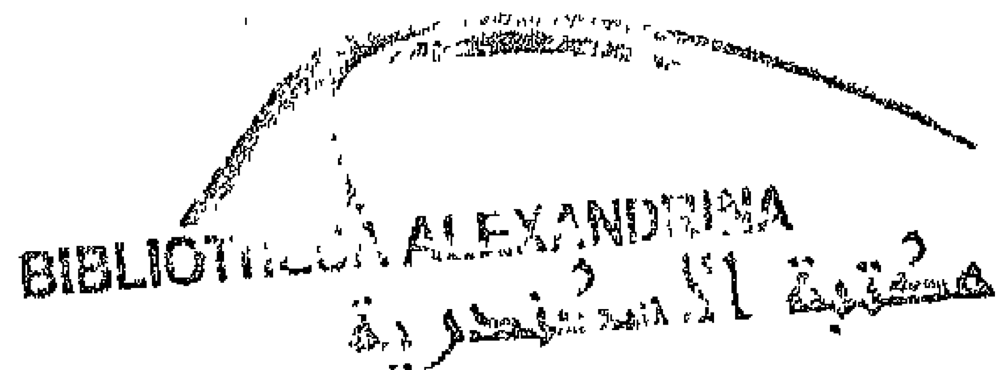
« اني رأيت قرني الكبش في البيت ، فنسيتُ أن آمرك أن تُخمّرهما فانه لا ينبغي أن أن يكون في البيت شيء يشغل مصلياً » ص٦٨

روى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في معرض حديثه عن طواف هاجر بين الصفا والمروة وسنة السعي بينهما : (فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروة) وانه قال عن زمزم وحفر حفيرته في مكان نبعه — ص٩٢

« فأحاضته » أم اسماعيل أي حاطته وجمعته ومنه اشتق (الحوض) — ص٩٢

وقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم أيضاً عن زمزم : « لو تركته أم اسماعيل كان عيناً معيناً يجرى » — ص٩٢

وقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم أيضاً عن ترحيب هاجر باقامة قبيلة جرهم معها في مكة قبل سكنى أي أحد غيرهما : « ألفى ذلك أم اسماعيل وقد أحبت الأنس » — ص٩٢



فهرس الشعر

بمصطحبـــات من لصـــاف وثبـــرة
يزُرن الالا ســـيرُهن التـــدافع
ص٢١ « النابغة الذبياني »

فاقسمت بالبيت الذى طاف حـــوله
رجال بنَوه من قُرَيشٍ وجُرهـــم
ص٢٩ « زهير بن أبى سلمى المزني »

فاني وثـــوبي راهب اللـــج والتي
بنـــاها قصي والمضـــاض بن جرهم
ص٢٩ « ميمون بن قيس » الأعشى

قالت : هلم الى الحـــديث فقلت : لا
يأبى الالهُ عليـــك والاســـلامُ
ص٣٢ « راشد بن عبد الله السُلمي »

نحـــن غـــرابا عك عك اليك عانيـــه
عبـــادك اليمانيـــه
ص٤ (عك)

لا هم ان العبد يمنع رحله فامنع رحالك
ص٤٦ « عبد المطلب بن هاشم »

لا هـــم أنت الملك المحمـــود
ربي وأنت المبـــدىء المعيـــد
ص٤٦ « عبد المطلب بن هاشم »

وســـاسان بن بابك سار حتى
أتى البيت العتيق يطوف دينـــا
ص٦٥ « بعض شعراء الفرس »

زمزمت الفـــرس على زمـــزم
وذاك في ســـالفها الأقـــدم
ص٩٠ « شاعر لم يذكر المسعودي في تاريخه اسمه »

فاي مناقب الخيرات لم تشدد به عضدا
ص٩١ « مسافر بن عمرو بن أمية بن عبد شمس »

تطيف عليه الطـــير وهو ملعب
خلاف البيوت عند محتمل الصـــرم
ص٩٣ « أبو فراش »

فهرس موضوعات الكتاب

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

■ فهـــرس فهـــارس الـــكتاب ■

■ فهـــرس الصـــور ■

الطائف
دار الحارثي للطباعة والنشر
تليفون : ٧٣٣٤٣٧٤ تليفاكس : ٧٣٤٤٢٩٤
ص ٠ ب : ١٢٨١

هذا الكتاب

□ لعله أول كتاب يؤلف بصفة مستقلة عن تاريخ " الكعبة المشرفة قبل الاسلام " • • فهو كتاب تراثي مفصل واضح الأسلوب ، مركز العبارات ، فصيحها وصحيحها على مستوى الموضوع الهام الذي ألف فيه لأول مرة في التاريخ على ما يلوح لي مما اطلعت علية من تواريخ مكة المكرمة بصفة عامة والكعبة المشرفة بصفة خاصة • ولست أجزم بأن هذا الكتاب هو أول كتاب صنف في موضوعه ، ولكن الأمر الذي أجزم به أنه على كثرة اطلاعي ومطالعتي للكتب الوفيرة المؤلفة عن مكة المكرمة ومقدستها التي تقوم في داخل المسجد الحرام لاأذكر أنه سبق لي أن وقفت على كتاب أفرده مؤلفه بكتابته عن الكعبة قبل الاسلام ، والانسان اذا ما تحدث في مثل هذه المواقف عما توصل اليه من المعلومات بعد كثرة البحث والتنقيب وكثرة التجوال في آفاق الموضوع المتحدث عنه فانه غير ملوم في ابراز ثمار تجاربه • والله العليم بحقائق الأمور يقول في محكم كتابه الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ • وصدق الله العظيم □

ردمك : ٣ ـ ٢٠ ـ ٦١٧ ـ ٩٩٦٠